أسيرة الماضي

نُهى صبُح

الكتاب : أسيرة الماضي (رواية)

المؤلف : نهى صبح

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٥٠٩٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 194 - 9

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



أسيرة الماضي

رواية

نُهى صُبح



في إحدى ليالي ينايرِ الباردةِ، كان الثلجُ يتساقطُ، وجميعُ الطُرقِ أُغلِقتْ بسببِ تراكمِ الثلوجِ، لم يتمكنْ أحدٌ من الخروجَ من منزلهِ، والكلُّ قابعٌ حولَ المدافئِ...

في هذهِ الليلةِ أعودُ بذاكرتِي إلى يومِ وفاةِ والدتي، مرَّ على وفاتِها عشرُ سنواتٍ، رغمَ الحزنِ الذي يسكنني، إلاّ أنني لازلتُ قادرةً على تذكرِ ماذا جرى لي بعدَ وفاتها، كانَ يجبُ أنْ أقومَ بخطوةٍ؛ لم أعلم وقتها إنْ كانتْ خطوةً صحيحةً ستقلبُ مسارَ حياتي، أم هي خطوةً خاطئةً لو لمْ أُقدم عليها لكانَ خيرًا لي.

كان لابدَّ أنْ أكسرَ حواجزَ الخوفِ التي بداخلي، وأقضي على كلِّ لحظةِ حزنٍ مرَّتْ في حياتي وأتابعُ مسيري نحوَ الأمامِ، كنتُ أعلمُ أننَّي سأتعثرُ كثيرًا، وما أملكه من إصرار يساعدني على أن أواجه قدري.

أمي امرأةٌ شاميةُ الأصلِ، لها لِمَا للشامياتِ من طولٍ فارعٍ، وشعرٍ مموجٍ جميلٍ، والعينانِ العسليتانِ البراقتان، أمَّا ذلكَ الصوتَ الممزوجِ بأنغامٍ كلَّه دلع ونعومة.. تلكَ هي أمي؛ رقيقة لا تقوى على المواجهة، لذلك سكنتْ في غرفة في منزل خالي إحسان، فبعد وفاةِ والدي، وبعد أن رضختْ لقسوةِ الزمنِ، آثرتْ أن يغزوها اليأسُ والألم بعدَ مرورِ سنواتٍ من الشقاءِ، لم يتركْ والدي قبلَ وفاته ما يكفيها، لذلكَ اضطرتْ للعمل حتى تقومَ بتربيتي، على الرغم من أنه ينتمي إلى عائلةٍ كويتيةٍ ثريَّةٍ جدًا، إلاَّ أنَّه تركَ الكويتَ وبدأ أعمالَهُ في سوريا معتمدًا على ذاتهِ، لكنَّ الحظَ لم يحالفه فقدْ خسرَ كلَّ أموالهِ بالبورصةِ، ماتَ على

إثرها بالذبحةِ الصدريةِ أدركتُ بعدها أنه لا يزالَ عندي إرثُ والدي ولي الحقُ في الحصولِ عليه، فقد سئِمتُ من الفقرِ وأريدُ أن أحيا حياةً فارهةً.

بعد أسبوعٍ منْ وفاةِ والدتي استيقظتُ باكرًا لحزمِ حقائبي، طلبتُ الإذنَ من خالي "إحسان" للسماحِ لي بالسفرِ، عارضَ كثيرًا هذه الفكرة، وحذَّرني من العقباتِ التي سأقابلُها، إصراري كانَ أقوى منْ معارضتهِ، بعد ساعاتٍ وساعاتٍ حاولتُ اقناعهُ حتى سمحَ لي بالذهابِ، نظر إلي بعينيهِ المغمضتين المليئتين بالتجاعيدِ وقال لي :

- لن أمنعكِ من المطالبةِ بحقك، اعلمي يا بنيّتي أنني عملتُ جاهدًا ألاّ يطولكِ أذى، سأترك الخيارَ لكِ، افعلي ما تجدينه صوابًا، كلّ ما أستطيع فعله أن أُكلم ابني "رياض" لكي يلقاكِ هناك ويهتمُّ بكِ ويساعدكِ في البحثِ عن أهل والدك.

تركتُ منزل خالي أقصد ذلك البلد الغريب، ركبتُ الطائرةَ وتوجهتُ إلى رحلةِ المتاعبِ في بلدٍ لم أعلم ماذا سيحدثُ لي به، اعتبرتُها بلادَ العجائبِ، فالكثيرُ من المفاجآتِ ستكونُ بانتظاري.

وأنا في الطائرةِ بدأتُ أفكِّرُ، كيف سيستقبلونني عندما يرونني؟ وكيف هي عائلتي الجديدة؟.. بدأتْ الأفكار تتلاعب بي.

وصلتُ إلى مطارِ الكويتِ، وجدتُ ابن خالي رياض بانتظاري، سلَّمتُ عليه، وسررتُ لوجوده، فلن أشعر بالغرُبة كثيرًا. اصطحبني إلى الفندقِ لأرتاحَ، وضعتُ حقائبي وانتظرتُ قليلاً حتى أستعدّ للحدثِ الجلل.

اصطحبني رياضٌ إلى بيت عمِّي، ونحن في الطريق كان يحدِّثني عن عمِّي ناصر بأنّه رجلٌ قاسي الملامحِ، صلبٌ، يديرُ مجموعته إدارةً ناجحةً لا يتهاونُ مع من يخطئُ.. ونظرَ لي وأكملَ حديثه:
- قد تجدينَ صعوبةً في التعاملِ معهُ، فأنتِ رقيقةٌ جدًا لن تتحملي تلكَ القسوةِ.

قالَ تلكَ الكلماتِ وهو يديرُ مقودَ السيارةِ ليقفَ أمامَ قصرٍ من أجملِ ما رأت عيني، وكأنّه قصرٌ لا يظهرُ إلاّ في الأحلام.

نزلتُ من السيارةِ وطلبتُ من رياض أن يغادر، لكنه ظلَّ ينتظرُ خارجًا ويراقبني من بعيدٍ، فتوجهتُ إلى المدخل وتوقفتُ أمامَ البابِ الخارجي وبدأتُ أنظرُ نظراتٍ استكشافيةٍ لكلِّ ما هو أمامي، فحديقةُ المنزلِ بمساحةِ الحيِّ الذي عشتُ وتربيتُ فيه.. ألقيتُ نظرةً فاحصةً لكل ما هو حولي، وما أن رآني الحارس حتى جاء يركض نحوي ليسألني:
- ماذا تريدين ؟

في الحقيقةِ عقدَ لساني ولم أعرفْ ما أقولُ، ولم أعرفْ ما هو اسم زوجةُ عمِّي أو من يقطنُ في هذا القصر، هل هو منزلُ العائلةِ؟ أم عمِّي وعائلتِه فقط من يقطنُ فيه، لذلك قلتُ له:
- أريد صاحبة المنزل في موضوعِ حياةٍ أو موتٍ.

عندما سمع ذلكَ أسرعَ ليخبرَ صاحبةَ المنزلِ..
يا تُرى من سيقابلني، أهي زوجةُ عمِّي، أم العمة بدرية؟...

وبعد هنيهة ظهرتْ سيدةٌ أنيقةٌ شعرها بنيٍّ ممزوج بشعرٍ أبيض، تفوحُ منها رائحة عطرٍ وبخور.. توقفتْ أمامي وسألتني:
- مَنْ تريدين ؟

عرَفْتُها، هي عمتي "بدريّة"، شاهدتُ صورَها مع والدي الذي أحبَّها حتى في لحظةِ وفاتهِ كانت عيناهُ تفيضُ دمعًا حنينًا لرؤيتها، لم تتغير ملامحها كثيرًا؛ غيرَ أنها كبرت في السنّ قليلاً إلاّ أنها كما هي... أعادت السؤال مرة أخرى وقالت:
- ماذا تريدين يا ابنتي ؟

شجَّعني لقاؤُها على فتح حقيبتي وإخراجِ شهادةِ ميلادي لأقدِّمها لها... عندما قرأتْ الاسم "راوية ماجد محمد"، نظرتْ إليَّ واغرورقت عيناها وقالت:
- ابنةُ ماجد! تعالي إلى حضنِ عمتكِ.

بدايةٌ مبشرةٌ بالخير، تعجبتُ من لقائها؛ ما دامت المسألة سهلة هكذا؛ لماذا تركت أمي الجمل بما حمل وانهزمَت!.

أدخلتني إلى الداخل، كنتُ أنظر حولي وأنا شديدةُ الدهشةِ الأرضياتُ الرخاميةُ تجعلني أشعرَ بأنني أسير على سطح الماء من شدةِ لمعانها، الأسقف وكأنها تحفة فنية، الأضواء الكرستالية كأنها نجومٌ تتلألأُ في السماءِ، الأثاث الفاخر.... توقفتْ دهشتي عندما أمسكتني عمتي من يدي وأدخلتني إلى القاعة الملوكية؛ هكذا أسميتُها عندما رأيتُها؛ جلستُ بمفردي مع عمتي بقيتُ أحدثُها عن أحوالي وما جرى لي بعد وفاة أبي، وأثناء حديثي معها أخبرتها عن وفاة أمي، كان في حديثي بعض

الاستعطاف، وهي كانت مشدودة جدًا لكلامي، حزنتْ لوفاتها وبدا واضحًا أنها تنوي البكاء ولكنها أخفت دموعها بعباراتٍ مفتعلة حتى تغير الموضوع.

بقيتُ جالسة معها إلى أن أتى الجميع، عرَّفتني إليهم جميعًا: أولاد عمِّي "ناصر" الثلاثة أكبرهم منذر، كما عرَّفتني إلى ابنها "ماهر" وابنتها "منال"، إنها تشبهها كثيرًا نفس الملامح ونفس النظرة، أعتقد أننا سنصبح صديقتين. أمَّا زوجة عمِّي فلم تظهر عليها معالم السرور حتى أنها تركتنا وصعدت إلى غرفتها حتى يحين موعد الغداء.

جلسنا نتبادل أطراف الحديث، جميعهم بدوا ودودين... وبعد طول انتظار؛ حضر كبير العائلة عمِّي ناصر، كان كما وصفه لي رياض: ملامح وجهه قاسية جدًا، لا تعرف الابتسامة طريقًا إلى وجهه، في حضوره قوة تجبرك على أن تخاف النظر إلى عينيه، ولكن مع هذا كله تعمدتُ النظر إليه؛ رغم أنني لم أفهم أسباب تلك الدهشة التي يحاول أن يخفيها خلف العينين الجاحظتين... نظر إليَّ وتوجَّه بنظره نحو عمتي وسألها :

- مَنْ هذه ؟

فقالت له :

- هذه ابنة ماجد.

وقامت بإعطائه شهادة ميلادي.

كم هو متعجرف، ينظر لمن حوله نظرة متعالية، وهي نفس النظرة التي رمقني بها وهو يقول لي :

- أين تمكثين؟

أجبتُهُ مسرعة :

- أمكث في الفندق.

نظر إلى الورقة التي بيده وهو يتحدث إليّ :

- بعد أن تنهي غداءَك اذهبي إلى الفندق وأحضري حقائبك وامكثي هنا لحين التأكد من هويتك، فتلك الشهادة قد تكون مزورة.

قالها وعيناه تؤكد أنه على معرفة مسبقة بي.

تعجَّبتُ لموقفِهِ لكنني سُررّتُ لأنهم لم يدخلوني في دوامة إثبات الهوية، ما دمتُ على يقين من هويتي، فله مجمل الحُرِّية في فحص تلك الأوراق.

توجهنا نحو غرفة الطعام، ليست غرفة؛ بل قاعة تتسع لعشرين فردًا، والطاولةُ تزدحمُ بالأطعمةِ المتنوعةِ، كنتُ أنوي التعليقَ على موائدِ الرحمنِ، لكني التزمتُ الصمتَ فليسَ من اللائقِ أن أكونَ وقحةً في أوّلِ تعارفٍ بيننا، فمنظر الأطعمة على المائدة جعلني أشعر بالشبعِ، لذلك لم أضعَ لقمةً في فمي، بدأتُ أحدِّقُ بهم واحدًا واحدًا حتى التقتْ عيني بعين عمِّي، فقال لي :

- ألم يخبركِ أحدٌ أن تنظري أمامكِ وأنتِ تتناولين طعامك؟

أحرجني كلامُهُ فبقيتُ أنظرُ إلى الطبقِ الذي أمامي، حتى أنهينا جميعنا تناول الطعام وغادرنا متوجهين إلى الردهة وجلستُ مع عمِّي وعمتي لنحتسيَ القهوةَ، شعرتُ ببعضِ التوترِ والارتباكِ لذلكَ عملتُ جاهدةً أن أخفيهما من خلال الحديث المستمر حتى أتجاوز ارتباكي، فأوقفني عمِّي ليسألني :

- مع مَنْ كنتِ تعيشين في الأيام السابقة ؟

أجبتُهُ دونَ ترددٍ :

- بعدَ وفاةِ والدي لم يترك لنا ما يكفي لتحملَ نفقاتِ المعيشةِ، لذلكَ سكنتُ ووالدتي في غرفةٍ في منزلِ خالي، تعبتْ والدتي كثيرًا حتى ربَّتني وكبرتُ، لكنها لم تستطع أن تتحملَ كل هذا العناءِ.

أوقفني ليسألَ عنها :

- وكيفَ هي ؟

صُدِمَ لخبرِ وفاتها، ارتجفتْ يداه فسكبَ القهوةَ على بنطالهِ، تركني مع عمتي وذهبَ إلى غرفةِ المكتبِ وأغلقَ البابَ على نفسهِ.

رغمَ أن أسئلتَه تدلُّ على يقينِ معرفتِه بي، لكنَّه كان يسأل ليعرف أخبارها.

طلبتْ عمتي من السائق أن يوصلني إلى الفندق لأُحضِر حاجياتي.. عندما وصلتُ هاتفتُ رياض لأطمئنه وأخبره بكل ما حدث، بعد دقائق جاء إلى الفندق ليراني، أعطاني هاتفًا محمولاً، وخزَّن عليه رقمه لكي يظل يطمئنّ عليَّ. لم أكن بحاجة لهذا الهاتف كثيرًا، فأنا على يقينٍ أن عمتي بدرية ستقوم بإعطائي هاتفًا حديثًا، لذلك قرَّرتُ أن أخفيه لأنني لستُ بحاجةٍ إليه.

عدتُ إلى القصرِ الفخمِ، وأنا أقولُ في نفسي : ياه سأدفنُ أيامَ الفقرِ. صعدتُ الدرجَ برفقةِ الخادمةِ وقدماي ترقصانِ فرحًا، فللمرة الأولى سأبيتُ في قصرٍ ثريٍّ، توقفتْ الخادمة أمامَ غرفةٍ عندما رأيتُها توقفتُ ساكنة مكاني من شدة الدهشة فهي بحجمِ بيتِ خالي إحسانٍ، السرير يتسعُ لثلاثةِ أشخاصٍ، سأتقلب عليه بمفردي لأولِ مرةٍ.

• • • •



مرَّ أسبوعٌ على مكوثي في بيتِ العائلةِ، بتُّ اتقربُ إلى الجميعِ، كلُّ واحدٍ منهم لهُ ما يميِّزهُ عنِ الآخر: زوجة عمِّي دائمًا ترفع حاجبيها إلى أعلى جبينها أثناء حديثها مع الآخرين وأشعر أحيانًا أنها لا تحبُّ أحدًا حتى ظننتُ أنَّها تكره نفسها، أمَّا منذر فهو دائمًا يرمقني بتلك النظرات، أحيانًا تُخيفني، وأحيانًا أتجمَّدُ مكاني عندما أراه، أما ابنة عمتي "منال" لم تكن تجلس كثيرًا في البيت في الصباح تذهب إلى الجامعة وعندما تعود تلزم غرفتَها ولا تخرج منها إلاّ عند ذهابها إلى صديقاتها، ابنيَّ عمِّي نادر ونديم ليس لهما أيُّ دورٍ فاعلٍ، تغلب عليهما السلبية فلم ألحظ تواجدهما الدائم في المنزل وكأن هذا المنزل بمثابةِ الفندقِ بالنسبةِ لهما.. عمتي وحدها أستطيع رؤيتها باستمرار، كلما جلستُ معها تسألني عن أبي وأشعر دائمًا أنها تأسى على فراقه.

ما يجعلني أشعر بالاستغراب، أنه خلالَ الأسبوعِ الأول لم أتحدث إلى عمِّي، وكأنه يتجنب الحديث معي، بالرغم من أنه يشك كوني ابنة أخيه، ويجب أن يطرح عليَّ الأسئلة ليتأكد من عدم احتيالي، فأنا لستُ مستاءة من هذا الوضع، لأنني أنام وقتما أشاءُ وأستيقظ وقتما أشاءُ، وأتناولُ أطيبَ الأطعمةِ، بل أنني أصبحتُ أرى أشياءً لو عشتُ عمري كلَّه في بيت خالي إحسان فلنْ أراها أبدًا.

أصبحتُ أشعرُ أنني سيدةَ القصرِ، بدأتُ أدرِّبُ نفسي على كيفيةِ التكيُّفِ مع الحياةِ الجديدةِ، أصعدُ كلَّ يومٍ الدرجَ كما تصعدُ الأميراتُ، أحاولُ تقليدَ بعضَ الفناناتِ في الأفلامِ التي أشاهدها وأحاولُ أن أتقنَ جميعَ الأدوارِ حتى لا أسمع انتقادًا من زوجةِ عمِّي أو من أبناءِ

عمومتي، لذلك يجبْ أن أصبحَ مثلهم، حتى لو اضطررت إلى أن ألقيَ الماضي بكلِّ ما فيهِ وأمشي قُدمًا لأصبحَ إنسانًا جديدًا.

تعدَّتْ اقامتي الشهرَ دونَ أن يناديني عمِّي ويتحدثَ إليَّ، وأصبحتُ أشعرُ بالمللِ منْ عدمِ فعلِ أيِّ شيءٍ، فلستُ معتادة على ذلك الروتين، وهذا ما جعلني أفكِّر بالعملِ، فأنا حاصلةٌ على شهادةٍ جامعيةٍ في الأدبِ الإنجليزي... انتظرتُ حينَ قدومِ عمِّي لأفاتحهُ بالموضوعِ، عندما جاءَ ونزلتُ لرؤيتهِ كانتْ قدماي قدمٌ تُقدّم وأخرى تؤخر حتى وصلتُ إلى غرفة المكتبِ، قمتُ بالدقِّ على البابِ وانتظرتُ حتى سمحَ لي بالدخولِ، فتحتُ البابَ ودخلتُ وأنا خائفةَ جداَ فعمِّي يختلف عن الكثير من الرجالِ، أحيانًا أظنُّ أنه يرغب بوجودي وأحيانًا أنه يتمنى عدم رؤيتي؛ ولا أعرف لماذا، توقفت أمامَهُ وقلت له بصوتٍ خافتٍ :

- أرغب في العثورِ على عملٍ، وكنتُ أنوي أن أطلبَ منك مساعدتي.

نظر لي نظرة ساخرة وقال :

- تريدين العمل ؟ حتى أنني لم أتأكد بعد من هويتكِ، لا تحاولي أن تختبري صبري.

بدأتُ أتلعثم بالحديث معه وقلتُ له :

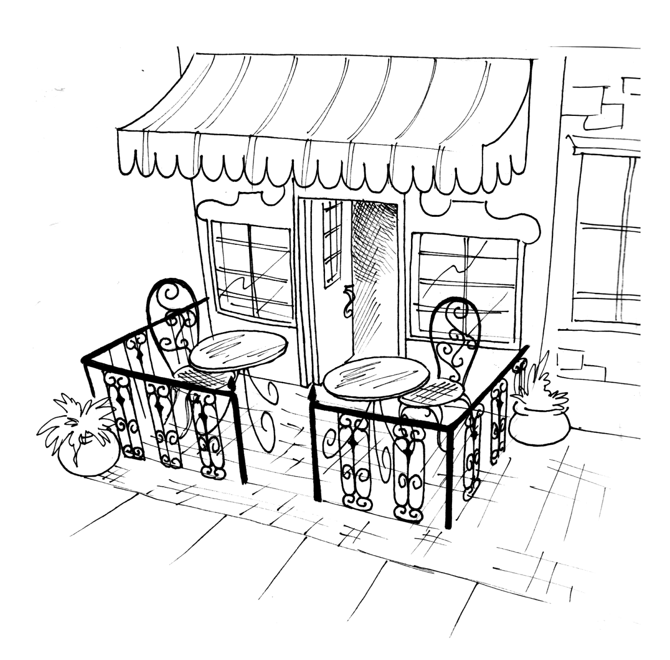
- تستطيع أن تتأكد من هويتي بكل بساطة.

نظر لي ثانيةً وكانت نظرتهُ تشبهُ نظراتِ الصقرِ لا تعرفُ الرحمةَ وصرخَ في وجهي :

- اصعدي إلى غرفتكِ.

غادرتُ مسرعةً، ظننتُ أنه سيصفعني من شدةِ غضبهِ، وتوجهتُ إلى غرفةِ عمتي وأخبرتُها بكلِّ ما دارَ بيني وبينَ عمِّي، فاقترحتْ عليَّ الذهابَ إلى السوقِ لأروّحَ عن نفسي وأشتريَ كلَّ ما أحتاجهُ، المهم ألاّ أفكِّرَ بالعملِ.

أصبحتُ كلَّ يوم بعد أن أنهيَ فطوري أذهبُ لأتمشى على البحرِ، وبعدها أجلسُ في أحدِ المقاهي الموجودةِ في أحد المراكز التجارية، وآخذ معي الحاسوب المحمول أحاولُ أن أتسلَّى بكلِّ الطرقِ، صرتُ من زبائن هذا المقهى، وأصبح طلبي معروفًا بالنسبةِ للنادلِ، وهذا كان يزيدُ من سعادتي، فأنا أعيشُ حياةً كنتُ لا أراها إلاّ في الأفلامِ والمسلسلاتِ، بدأتُ أصبح إحدى أبطال تلك القصص القديمة التي كنتُ أقرأها في الماضي.



في أحدِ الأيام وكالعادة أجلس على نفس الطاولة ويحضر لي النادلُ قهوتي كالمعتاد، عندما جلستُ رأيتُ شابين يجلسان على المقعدِ الذي أمامي، التفتُّ نحوهما فرأيتُ أحدهما يراقبني، حتى أن عينيه خرقتْ أعماقي كما لو كانت سهمًا، خجلتُ ولم أرفع عيني عن الحاسوبِ، فقمتُ وغادرتُ.

كلَّ يومٍ أذهب إلى هذا المقهى أجده جالسًا برفقةِ صديقهِ وكأنَّهُ ينتظرُ حضوري، ويبدأُ النظر نحوي بتلك العينين المفعمتين بالحيويةِ، يقرأ الصحيفة ويحرِّك شفتيه تارة؛ وتارة يقرأُ بصمتٍ.. كنتُ أسترقُ النظرَ إليهِ، فهو يمتلكُ بشرةٍ سمراءَ، رغمَ أنَّني فتاة بيضاءُ إلاّ أنِّني أُغرمُ سريعًا بأصحابِ البشرة السمراءِ، فلهُ طريقةٌ مميزةٌ بشُربِ القهوةِ، ولهُ لحيةٌ خفيفةٌ وشفتانِ منتخفتانِ، وعندما ينفخ على فنجانِ القهوةِ كأنهُ يرسلُ لي قبلةً، فأزدادُ خجلاً من هذا التفكيرِ...

صِرتُ ألتقيهِ كلَّ يومٍ، حتى باتَ موعدًا بيننا، أعلمُ أنّها ساعةَ استراحةٍ للموظفين في الشركاتِ الخاصةِ، كم أشعر بالسعادةِ لتواجدي معهُ في نفسِ المكانِ، ونتبادلَ النظرات، كنت أهيم في بحرِ عينيه... حتى وجدتُ من يضربُ على طاولتي بيديهِ ويصرخُ في وجهي، التفتُّ لأرى من هو؟ وإذ به منذر ابن عمِّي، ينعتني بألفاظٍ قبيحةٍ، حاولتُ الاستفسار منهُ عن سببِ صراخهِ فأمسكني من شعري وبدأَ بضربي، أصبحتُ أصرخُ وأستنجدُ بأيِّ أحدٍ يبعدهُ عني، حتى اقتربَ ذلك الشابُّ من منذرٍ وقال له:

- ليسَ من اللياقةِ والأدبِ أن يضربَ الشابُّ فتاةً.

وطلبَ منه تركي وشأني .

استجابَ له وتركني، وبات واضحًا أنه ينوي العراك، وجدتُ من يمسكَ يدي ويشدني بعيدًا عن كل هذا، إنه صديق ذلك الشاب، كان لابد أن يبعدني عن الشجار، قلقتُ كثيرًا على ذلك الشاب فلهجته لا تدل على أنه كويتي الجنسية، وعندما تحدثتُ أكثر مع صديقه عرفتُ أنه أردني الجنسية وأن النخوة الأردنية دفعته للدفاع عني.

سألتُ صديقه :

- ماذا سيحدث ؟

فأجابني :

- إنه عراكٌ بين الشباب.. سيأتي الأمن وينهي الموضوع.

نظرتُ له باستغراب وقلت :

- دائما تدخلون في شجار ؟!.

ضحك وقال لي :

- لا، هذه المرة الأولى ولكنها تستحق العناء.

خجلتُ منه وأنزلتُ رأسي إلى الأرض فلستُ معتادة على المجاملات.. طلبتُ منه رقم هاتف ذلك الشاب لأطمئن عليه. ابتسم وأعطاني كرتًا مدونًا عليه اسم سعيد منصور سألته:

- هل اسمه سعيد ؟

هزَّ رأسه وهو مبتسم:

- نعم.

وأكملَ قائلاً :

- وأنا اسمي معتز، ونحن الاثنان نعمل مهندسين في شركة خاصة هنا في الجوار.

غادرتُ المقهى مسرعةً وعدتُ إلى المنزلِ وأنا أرتجفُ من الخوفِ، بماذا سيخبرهم منذر...

مرَّتْ ساعة على انتظاري في غرفتي، حتى جاء عمِّي ومعه منذر، كان الصراخُ يملأُ أرجاءَ المنزلِ، تأتي الخادمة فتطلبُ مني النزولَ، للحظةٍ شعرتُ أنَّ قلبي سيتوقف، توجهتُ نحو غرفة المكتب وفتحتُ الباب دون أن أطلب الإذن بالدخولِ، فرأيتُ عمِّي يسرعَ في إغلاقِ الخزنةِ كأنه لا يريد أنْ يرى أحدٌ ماذا بداخلِ تلكَ الخزنة، عندما دخلتُ كان يرمقني بنظرةِ غضبٍ، فقلتُ له :

- ما الذي جرى؟

اقتربَ مني وأمسكَ ساعدي وقالَ :

- اسمعيني جيدًا، لم يعدْ وجودكِ هنا باختياركِ، ستمكثينَ في هذا المنزلِ رغمًا عن أنفكِ، لن تخرجي إلى أي مكان، ولن تعيدي القصة القديمة.

سألتُه :

- أي قصة تقصد ؟

أجابني بانفعالٍ :

- أطبقي فمك.

نادى عمتي وزوجته وحذرهم من السماحِ لي بالخروجِ من البيتِ، ونظرَ نحوي نظرةً حادةً وقالَ:

- اصعدي الى غرفتك ولا تخرجي منها إلاّ في أوقات تناول الطعام.

ظللتُ أفكِّر مرارًا وتكرارًا لأعرفَ ماذا يعني بالقصةِ القديمةِ، ومَنْ هم أبطالُ تلكَ القصةِ، وما علاقتي بها ؟

صعدتُ إلى غرفتي وقمتُ بمكالمةِ ذلكَ الشابِّ لأطمئن عليه، كنت أخشى أن يناله الأذى، فردَّ علي نفس الصوتِ الذي كانَ يتشاجرُ مع منذرٍ، وبالرغمِ من أننَّي عُنّفتُ قبلَ قليلٍ إلاّ أننَّي كنتُ مسرورةً وأنا أستمعُ إلى صوتهِ.

سألني بصوتٍ جادٍ :

- مَنْ المتحدثُ ؟

فأجبتُه :

- أنا راوية، التي كانت في المقهى هذا الصباح.

تغيَّرتْ نبرةُ صوتهِ إلى نبرةٍ تملأُها السعادةُ والسرورُ، وقال لي :

- أشعرُ أننَّي أسعدُ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ لأنني أستمع إلى صوتكِ.

قلتُ له :

- ماذا حدث بعد أن غادرتُ المقهى؟

فأجابَ :

- ذهبنا جميعًا إلى مخفرِ الشرطةِ، وجاءَ عمُّك لإخراجِ ابنه، وأنا كفلني صديقِي، ولكنّ عمّك صعبُ المراسِ، كانَ ينظرُ لي وعيناهُ تقدحانِ شرارًا.

اعتذرتُ منه عن المشاكل التي سببتها له، فردَّ بكل رقة :

- أيُّ شاب مكاني كانَ سيفعلُ نفسَ الشيءِ.

لم أصادفْ من هو أكثرُ منهُ نبلاً، تحدثنا عبرَ الهاتفِ لمدةِ ساعةٍ كاملةٍ ولم نشعرْ بالوقتِ، عرفتُ أنه يعيش في الكويت بمفرده ، توقفت قليلاً عن الحديث وقلتُ له :

ـ لا أستطيع أن أطيل في الحديث لأنني أخاف من عمِّي.

تقبَّل كلماتي القاسية التي تهدم كلّ المشاعر الجميلة التي كنت أعيشها أثناء حديثي معه، فاتفقنا أن نكمل حديثنا في وقت لاحق لكي نتعارف أكثر.

• • • •

بدأتْ الأيام تمرُّ سريعًا يومًا تلوَ الآخر، أنتظرُ في كلِّ يومٍ اتصالَ سعيدٍ، حتى توطدتْ علاقتي به، حتى فاجأني بأنه يرغب برؤيتي ثانيةً وهذه المرة بعيدًا عن الشجارِ.أجبتُه:

- لو علم عمِّي بأنني ألتقيكَ خفيةً سيؤدّي ذلك إلى حبسِي في المنزلِ مدى الحياةِ.

فقالَ لي :

- ألا تظنينَ أن الأمر يحتاجُ إلى مجازفةٍ.

أجبتُه :

- نعم هو كذلك لكنني أشعر بالخوف.

بنبرة صوت جادة، أجاب :

- كلا لا تخافي وأنتِ معي، سأكونُ أمينًا عليكِ.

فقلت له :

- سأراكَ غدًا في مكانٍ تحدِّدهُ أنتَ.

وفي اليومِ التالي استيقظتُ باكرًا وارتديتُ أجملَ الملابسِ لم أتمكنْ من الخروجِ بسبب القوانين التي فرضها عمِّي عليَّ، ولم يكنْ أمامي سوى عمتي بدرية وحدها من ستساعدُني، توسلتُ لها أن تسمحَ لي بالخروج فقد ضِقتُ ذرعًا من الإقامة الجبرية التي فرضها عليَّ عمِّي، فسمحتْ لي بعدها بالخروج والعودة باكرًا حتى لا أتسبب بالمزيد من المشاكلِ.

خرجتُ كأنني ذاهبةً في رحلةٍ، كنتُ مسرورةً، بل كنتُ كالعصفورِ الذي يطيرُ فرحًا...

عندما وصلتُ وجدتُ سعيدًا بانتظاري، توجهتُ نحوه وأنا أشعرُ بالخجلِ، هذه أول مرة ألتقي شابًا.. اقتربَ نحوي أكثرَ فأكثرَ، صافحتُه

ولم يكنْ ينوي أنْ يُفلتَ يدي لولا أنَّني أفلتُها استحياءً منه. جلستُ أمامه، كانت أنفاسي تتسارع وضربات قلبي تضرب كأنها تعزف إيقاعًا. بدأنا نتحدث عمّا جرى ذلك اليوم، كان حديثًا مفتعلاً لكنه ساعدنا على تجاوزِ الارتباكِ في بدايةِ اللقاءِ.

سألني :

- أخبريني عن نفسك، أتعجب أنكِ من عائلة كويتية فأنتِ لا تشبهينهم.

قلتُ له :

- ماذا تقصد بلا تشبهينهم، من هم ؟

فقال لي :

- عمك وابن عمك، كما أن لديك لهجةً مختلفةً تمامًا هي مزيجٌ بينَ الخليجيّ والسوريّ.

نظرتُ له بإعجابٍ وقلتُ له :

- تبدو ذكيًا جدًا، إنك شديدُ الملاحظةِ.

تنهد بعمقٍ وبارتياحٍ شديدٍ وقال :

- كلاّ ليست مسألة ذكاء، إنما هو نوعٌ من الاهتمام.

أجبتهُ وأنا أبتسم باستحياءٍ :

- والدتي سورية ووالدي كويتي، وعمِّي هو كبير العائلة، معرفتي به ليست بعيدةً، لقدْ قرَّرتُ المكوثَ في منزلِ العائلةِ بعد وفاةِ والدتي.

دون مقدماتٍ قال لي :

- راوية، لقد تركتُ عملي بسببِ توصيةٍ من عمكِ.

وبانفعالٍ شديدٍ قلتُ له :

- حقًا إنها غلطتي، كنت أعلمُ أنّه لن يدعك دونَ أن يؤذيكَ كنتُ واثقة تمامًا بأنه سيفعلُ ذلك، إذا رغبتَ سأتحدثُ إليهِ لكي تعودَ إلى عملكَ.

وبصوتٍ يبعث الحزن أجاب:

- لم أخبركِ بهذا لأنني بحاجة إلى مساعدةٍ، فقد وجدتُ عملاً في مكان أبعد، ولن أتمكن من رؤيتك باستمرارٍ، سيقتصر لقاؤنا على يوم الخميس فقط.

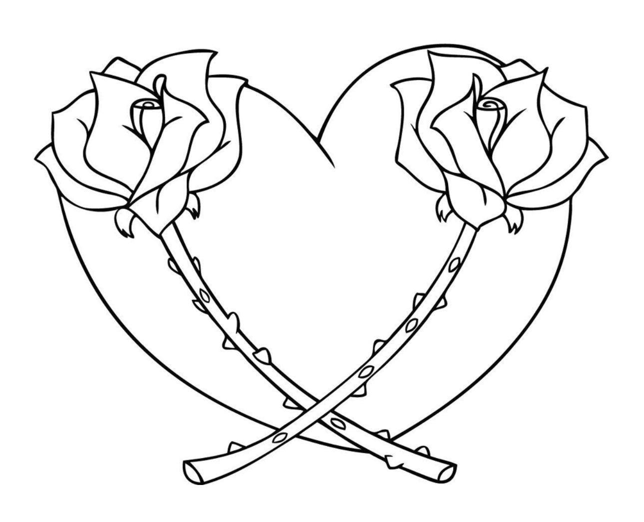
ابتسمتُ ابتسامةً خافتةً وقلتُ له :

- سأنتظرُ أن ألقاك بفارغِ الصبر.

عادتْ الحيوية إلى صوته وقال لي :

- لكن لن أكفَّ عن مكالمتكِ عبرَ الهاتفِ.

عندئذٍ امتلأ وجهي بالابتسامةِ وكلي شوقٌ للقائه ثانية.



عدتُ إلى المنزل مسرعةً نحو غرفتي قبل عودة عمِّي والجميع، حتى أنني خفتُ أن تلمحني زوجة عمِّي وأنا أصعد الدرج، كنتُ ألتفتُ حولي كاللصوصِ حتى اصطدمتُ بعمتي فقالت لي :

- ما بكِ، لماذا تلتفتين حولك هكذا ؟

أجبتُها وأنا أضع يدي فوق قلبي الذي كاد يخرج من صدري :

- عمتي كنتُ خائفةً من أن يراني أحدٌ غيركِ.

ابتسمتْ لي وقالت :

- وهل خرجتِ خفية، أم أنا من أعطاكِ الإذن بالخروج؟

أجبتُها وأنا أنظر لها باستغراب :

- لكنك طلبتِ مني العودة مبكرًا حتى لا أثير المشاكل.

كانتْ تنظرُ إليَّ وعيناها مفعمتانِ بالحيوية :

- إن رآكِ أحدهم فسأتكفل بالردِّ عليه، فأنتِ لستِ سجينة هنا.

وضعتْ يدها على كتفي وأكملتْ حديثها :

- ما دمتُ لا أزال على قيد الحياة فلن يجرؤ أحد على إيذائك.

في تلك اللحظة شعرتُ أنّ عمتي تمتلك الحنان والقوة معًا فهل يا ترى سأجدها عندما أحتاجها ؟

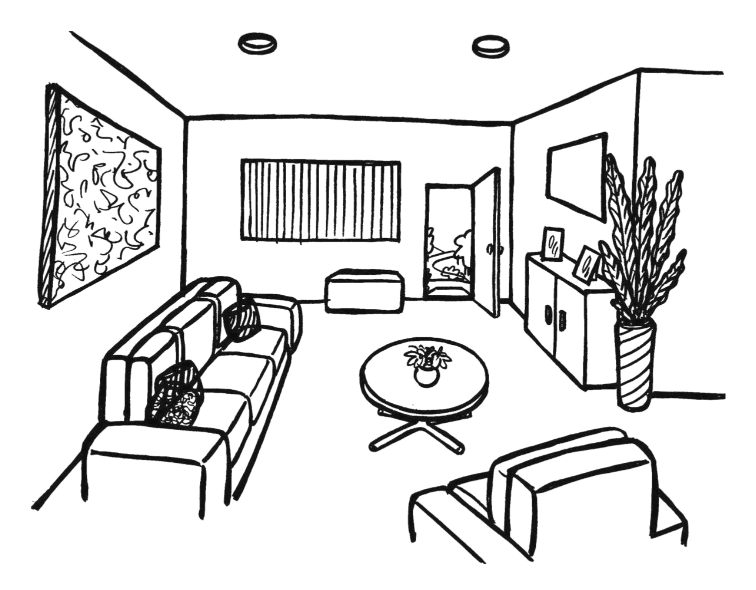
تركتني واستمرتْ في نزول الدرج، وأنا أكملتُ الصعود إلى غرفتي.

• • • •

بدأتْ علاقتي بسعيدٍ تأخذ جانبًا أكثرَ من مجردِ إعجابٍ، كلُّ يومٍ يهاتفني، ويرسل لي رسائلَ عبر الهاتف المحمول، لكنني خِفتُ أن يلفت الأنظار بكثرة اتصاله، اتفقتُ معه أن نتحدث بوقتٍ محدد، حتى لا ألفت الانتباه نحوي.. كلُّ خميسٍ ألقاه، وما عدتُ أشعرَ بالخوف من رؤية أحدهم لي وإن بلغ الأمر بمعرفة عمِّي بخروجي مع سعيد، فبقائي معه يزيدني قوةً.

في هذه الأثناء كان هناك ما يشغلني، لماذا عمِّي ناصر يمكثُ بالساعاتِ داخلَ غرفةِ المكتبِ؟ وماذا يفعل في الداخل؟ كانت تلك الأسئلة تحتاج إلى أجوبة، والإجابة داخلَ جدران ذلك المكتب، رحْتُ أخطِّط لدخولها، كنتُ أنوي إدخال الشك إلى زوجة عمِّي لأدفعها إلى مراقبته لتعرف ماذا يفعل فتكشف المستور، فكرَّتُ جديًا، وجدتُ أنني سأخسر كثيرًا من هذه الطريقة لأنها ستدخلني في دوامة ووجع رأس أنا في غنى عنه، فعمِّي ناصر شخص مرعب يتحدث دائمًا بحدية، لا يمتلك أسلوبًا حواريًا، حتى زوجته لا تستطيع التحدث معه كأي زوجة أخرى، كما أنها تتعامل معه كسكرتيرته الشخصية، قد تشي بي فلا يوجد ضمانات لنجاح هذه الخطة... أحتاج إذًا إلى وسيلة أخرى.

كلما دخل عمِّي إلى غرفةِ المكتبِ أظلُّ أراقبهُ، لكي أستعدَّ للدُّخولِ في اللحظة الحاسمة، الغريبُ أنَّني سألتُ عمتي بدرية، لماذا يجلسُ عمِّي ناصرٌ بالساعاتِ وحده في تلك الغرفةِ؟ ما سبب ذلك؟ ما الذي يفعله بالداخل؟ سألتُ عمتي عن أسباب مكوثه لساعاتٍ طويلةٍ في مكتبه، أم أنها تعرف ولا ترغب بإخباري، بكل الأحوال أنا عازمة على معرفة ماذا يوجد خلف ذلك الباب...



ذهبتُ إلى المطبخِ وافتعلتُ حريقًا بسيطًا دونَ أن يراني أحدٌ، وخرجتُ أتسحبُ على أطرافِ أصابعي وتوقفتُ في مكانٍ قريبٍ من غرفةِ المكتبِ، وسمعتُ الخادمة تبدأ في الصراخ، هرع الجميع نحوَ المطبخ لرؤية ماذا حدث، في هذه الأثناء خرج عمِّي مسرعًا من غرفة المكتب كالبقية ونسيَ أن يقفلَ البابَ خلفهُ، انتهزتُ الفرصةَ ودخلتُ واختبأتُ في الداخل، لكنه عاد مسرعًا وأغلقَ الباب، أصبحتُ محبوسةً في الداخل، كيف سأخرج، فضولي أقوى من خوفي، لذلك سأجلس حتى لو اضطررتُ إلى المكوث لفترة طويلة دون حِراك، المهم أن أعرف ماذا يوجد داخل تلك الخزنة الكبيرة، سأنتظر حتى يعود. وجلستُ أتفحص أركان الغرفة، وبدأتُ أحدِّق في تلك الخزنة وأفكِّر ماذا يا ترى يوجد بداخلها ؟

وبعد دقائق قليلة عاد، فاختبأتُ جيدًا حتى لا يراني، وأصبحتُ أراقبه، أول ما فعله أغلق الباب جيدًا بالمفتاح، ثمَّ قام بفتح تلك الخزنة، بدأتُ أراقب كيفية فتحها بتمعنٍ، وحفظتُ أرقامها وكرّرتُها مرارًا حتى أحفظها جيدًا، وتوقفتُ بعد أن فتح أبواب تلك الخزنة، أي شخصٍ مكاني سيتعجب لما رآه، إنها لوحة زيتية يقف أمامها دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، والمفاجأةُ الأكبر أنها صورتي؛ إنها تشبهني كثيرًا.. كلاّ، لستُ أنا، إنها أمي !!. ولماذا يحتفظ عمِّي بصورة أمي؟ لم أرَ أمي يومًا بتسريحة الشعر تلك، أريد معرفة سبب وجود صورة أمي المرسومة بالألوان الزيتية داخل خزنة عمِّي.. بدأتُ أنظرُ إلى الصورةِ كما يفعلُ عمِّي، وتوقفتُ عن النظر لأنني بدأتُ أفكِّرُ كيف سأخرجَ من هذا المكانِ دون أن يراني.. بقيتُ صامتةً ساكنةً في مكاني إلى أنْ ذهب إلى الحمَّام، كانت الفرصةُ سانحةً لأخرجَ عبرَ النافذةِ المطلةِ على الحديقةِ الخلفيةِ، واختبأتُ بينَ الشجيراتِ الصغيرة حتى أتمكن من الدخول إلى غرفتي. رأيتُ الحارسَ يقتربُ نحوي فتجمدتُ مكاني لكنهُ توجّه نحوَ النافذةِ ليغلقها فقد نسيتُ إغلاقَها.

بقيتُ في الحديقة أتحيّنُ الفرصة المناسبة لأدخل إلى المنزل ولكن دون جدوى، فالحارس لا يزال مستيقظًا، وكذلك عمِّي لا يزال في غرفة المكتب قد يلمحني إذا تحركتُ... بقيتُ مكاني حتى غفوتُ.

في اليوم التالي طلعَ النهار فاستيقظتُ من بين الشجيراتِ وكنتُ أتجمَّدُ من البردِ، توجهتُ نحو باب المنزل وأنا التفتُّ يمنةً ويسرةً حتى وصلت إلى غرفتي.. بدلتُ ملابسي وعدتُ إلى غرفةِ الطعامِ، كنتُ

أوَّل الجالسينَ على مائدةِ الإفطارِ مبتسمةً أنتظرُ قدومَ الجميع.. أقبلتْ عمتي وكانت أولَ الواصلين، فقبَّلتني على جبيني وقالت لي :

- أسعدُ الأيامِ عندما أراكِ مسرورةً.

فسألتُها وأنا أنظر نحوها نظراتٍ مفتعلة :

- ماذا حدثَ البارحةَ؟ سمعتُ صوتَ صراخٍ، لكنني كنتُ متعبةً فبقيتُ بالفراشِ.

أجابتني ولا تزال الابتسامة تلتصق على شفتيها :

- ليس بالشيء الخطير هناك من ألقى بعود ثقاب في سلّةِ المهملاتِ وكان بداخلها أوراق فظنّتْ الخادمة أنه حريق وبدأتْ بالصراخ.

وأثناء حديثها بدأتُ بالسعالِ فنظرتْ لي عمتي باستغراب وقالت :

- هل أنتِ مريضةً ؟

أجبتُها :

- كلاّ يا عمتي أنا بأحسنِ حالٍ لا تقلقي، يبدو أنَّ الجوَّ تغيَّر عليَّ ليسَ إلاّ.

وما هي إلاّ ثوانٍ قليلة حتى اجتمع الجميع وحضر عمِّي، كانت أنظاري متجهة نحوه، أرغب أن أطرح عليه سؤالاً يزعجني وأحتاج إلى الإجابة عليه: ما الذي كان بينك وبين والدتي؟.

في هذه اللحظة شعرتُ شعورًا لم أستطع تفسيره، كنتُ بحاجةٍ إلى عائلةٍ ولكنّني لا أجدهم كلُّ واحدٍ منهم مشغولٌ في أمورهِ الشخصيّة، أبناءُ عمِّي لا أستطيع التحدث معهم، حتى هذه اللحظة لم يتقبلوا وجودي كابنة عمهم، حتى ابنة عمتي اعتقدتُ أنها ستكون قريبة مني، لكنني لم أعد أراها، فهي منشغلة دائمًا بالذهاب الى الجامعة أو

الخروج مع صديقاتها، وزوجة عمِّي أيضًا دائمةُ الذهابِ إلى مصففة الشعر.. توقفتُ عن لقاء سعيدٍ بسبب انشغاله في عملِهِ وأصبحت أشعرُ بالوحدة، بدأتُ أراقبَ الجميعُ وهم يخرجون ولم يتبقَ سوى عمتي وأنا طبعًا، جلست مع عمتي وبدأنا نتحدث، تنهدتُ بصوتٍ مرتفعٍ، فقالت لي عمتي :

- ما بكِ يا بنيتي؟

أجبتُها بصوتٍ ضجرٍ :

- أشعرُ بالمللِ لم أعتدْ البقاءَ في المنزل هكذا دون فعلِ شيءٍ.

قالت لي بصوتٍ حنونٍ ودافئٍ :

- هل ترغبينَ بالخروجِ ؟ ما رأيكِ أن نذهبَ للمصففِ لكي تصففي شعركِ.

قبِلتُ دون تردد لأنني ضقت ذرعًا من هذا المنزل، بالرغم من أنّه منزلٌ كبير، وتظْهرُ عليه كلّ معالمِ الثراءِ إلاّ أنه ميتٌ لا حياةَ فيهِ، أفتقد كثيرًا بيت خالي إحسان، أفتقد أصالة ونجوى وكريمة بنات خالي، أفتقدُ النومَ على الأرضِ، أفتقد أمورًا كثيرةً، أفتقدُ الفولَ بالزيتِ، والفطورَ البسيطِ الذي كانَ يجمعنا مع بعضنا أحبةً، كلّ تلكَ الأمورِ بدأتُ أفتقدها رغم بساطتِها إلاّ أنَّها كانت أيامًا حلوةً.

خرجتُ معَ عمتي وركبنا السيارة وانطلق السائق، كنتُ طول الطريق شاردة الذهن حتى وصلنا إلى أكبر المراكز المخصصة بالعنايةِ في النساءِ الثرياتِ، تبدو عليه معالم الثراء ويبدو أيضًا أنه لا يرتاده إلا سيدات المجتمع، خطر في بالي أن أغيِّر مظهري لأشبه تلك الصورة، فأخبرتُ مصففة الشعر أن تقصِّر شعري وتصبغه بنفس اللون،

وصفتُ لمزينة الشعر شكلها بكل دقة، وبعد أن انتهتْ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة، كم أصبحتُ أشبهها حتى ظننتُ أنّ تلكَ الصورة رُسِمت لي، اقتربتُ نحو عمّتي التي كانت تتصفح إحدى المجلاتِ رفعتْ رأسها ونظرتْ لي باستغرابٍ وقالت :

ـ لماذا قصصتِ شعركِ ؟ ولماذا غيَّرتِ لونه ؟

سألتني وكأنها لم ترغب بأن أظهر بهذا المظهر.

سألتُها :

ـ ألم يعجبك هذا التغيير ؟

فقالت لي وهي شديدة التوتر :

ـ تبدين مختلفة وجميلة تشبهين والدتكِ.

قالتها سريعًا، شعرتُ أنها تسرعتْ بقولِها، لم أرغبْ في سؤالها عن والدتي، لذلك دعوتها لتناولِ المثلجاتِ.

كلما نظرتْ إليَّ تقول بعينيها الحزينتين: لماذا غيَّرتِ من مظهركِ ؟ كانت تنوي قولُها، فتحتِ جروحًا قديمةً أيتها الفتاة ظننَّا أنَّها اندملتْ.. لم آبه لما كانت تنوي قوله، جُلّ ما كانَ يشغلني هو رؤيةُ ردود فعلِ عمِّي.

بعد أنْ تجولنا كثيرًا عدنا إلى المنزلِ وجدتُ زوجةَ عمِّي تجلسُ على المقعدِ وتقرأُ إحدى المجلاتِ، وقفتُ أمامها وقلت لها:

ـ ما رأيكِ بهذا التغييرِ ؟

نظرتْ لي، ورفعت حاجبيها كالمعتاد وصمّت شفتيها وذهبتْ دون أن تتلفظ بأيّ كلمةٍ.

وبعدَ دقيقةٍ جاءتْ ابنة عمِّتي وتعجبتْ من قَصّة شعري قائلة :

- لماذا قصصتِ شعرك ؟ كنتِ تبدين مثل الحوريات وأنتِ بالشعر الأشقر الطويل.

فأجبتُها :

- ألم تعجبك تسريحتي الجديدة ؟

فقالت لي مبتسمة :

- لستُ أدري أعتبر أن هذه التسريحةَ قديمةً نوعًا ما لكنكِ تبدينَ مختلفةً.

أزحتُ نظري عن الجميع المتعجب لقصة شعري حتى جاء منذر وبدأ يرمقني بنظراته المخيفةِ، لكنّه لم يتحدث إليّ فقدْ اكتفى بالنظرِ لي... وأخيرًا حضرَ مَنْ كنت أنتظرهُ، جاءَ عمِّي ناصرٌ، لم أنتظرْ حتى يلحظَ ذلك التغيير فذهبتُ نحوه مسرعةً، وقلتُ له :

- ما رأيكَ بتسريحتي الجديدةِ ؟



نظر نحوي لبضع دقائق ثمّ رفعَ يدهُ وصفعني، حتى أنّه من شدةِ الصفعةِ وقعتُ أرضًا، لم أغضبْ من الصفعةِ بل كنتُ مسرورةً، فهذا يعني أنّه رأى ما كنتُ أريدُ أن يراه. تجمعتْ العائلة وتعجبوا لتصرفهِ، لا أحدُ يعرفُ السببَ الحقيقي سواي، أمّا هو ففي داخله شكٌ، في الغالبِ مجردُ صدفةٍ.. أسرعتْ عمتي نحوي وساعدتني على النهوضِ، فتركتُهم وصعدتُ إلى غرفتي مسرعةً.

وبدأتُ أنزل من غرفتي وأجلس على المائدة في مواعيدِ تناول الطعامِ، وبالطبعِ كنت دائمًا أولُ الحاضرين ويأتي عمِّي بعدي مباشرةً، بقدر ما كان يرغب أن يراني أمامه، بقدر ما أراد أن ألزم غرفتي، كنتُ أتعمد الجلوس أمامه والنظر إليه، بدا تغييرٌ واضحٌ على تصرفاته لم ألحظ بمفردي هذا التغيير كانت زوجة عمِّي تلحظُ ذلكَ ولكنها لا تستطيع أن تبوح له، فهي تخشاه، لذلك بدأتْ تراقبَ دونَ أن تعقِّب. كنتُ أشعرَ بضعفه عندما كان يبعدُ عينيهِ عنيّ لكي لا يراني، لم يعد يجلس كثيرًا في غرفةِ المكتبِ، وأصبحَ جلوسهُ الدائم في المكان الذي أتواجد فيه، حتى أنه ما عادَ يقاومُ النظرَ إليّ كما كان يفعلُ سابقًا.

أدخلتُ نفسي في لعبةٍ صعبةٍ لم أعلمْ ما كنتُ أقصده منها، هل كنتُ أنوي إغواءَ عمِّي دون قصدٍ وأعيد في نفسه ذكرياتٍ قديمةٍ دُفِنتْ قبلَ سنينٍ، أم أنّني كنتُ أستدرجهُ ليعترفَ لي عمّا يخفيه عن الجميعِ؟.

مهما كانت أسبابي فهذا ليس مبرراّ لذلك الفعل، في كلتا الحالتين تراجعتُ عن تلكَ اللعبةِ المدمرةِ قبلَ أن أُقحمَ نفسي في أخطاءٍ لا تُحمدُ عقباها، في نهايةِ المطافِ لا أستطيعُ أن أكملَ هذه اللعبةِ، خفتُ أن أرتكبَ خطأً، فابتعدتُ عنهُ.

يبدو أن تراجعي عن ذلك الفعلِ المشين جاء متأخرًا، فقد ظلّ عمِّي يطاردني في كلِّ مكانٍ أتوجهُ إليه، يفتحُ بابَ غرفتي فجأةً دونَ أيّ سببٍ، اضطررتُ لإغلاق غرفتي بالمفتاح أثناء نومي، التوتر والقلق لا يفارقاني، شعرتُ أنني أختنق من ملاحقة منذرٍ المستمرة لي، ومطاردةِ عمِّي.

• • • •

بعدَ مرورِ شهرٍ لم أرَ بها سعيدًا؛ شعرتُ بحاجتي إليه وطلبتُ أن ألقاه، وكالعادةِ اشتياقه لي يجعله يفرغ نفسه من أشغاله لكي يراني.

خرجتُ دون أن أطلب الإذنَ من عمتي، فقد سئِمتُ من هذا الوضع البائسِ، خرجتُ وسِرتُ حتى أوقفتُ سيارةَ أجرةٍ، وطلبتُ من السائق أن يوصلني إلى العنوان الذي ذكرته له.

عندما التقيتُ بسعيدٍ جلست أمامه دون أن أنطق بكلمة واحدة، لقد كان متعجبًا لقصة شعري وقال لي :

ـ لماذا قصصتِ شعرك هكذا؟

فأجبتُه وأنا حزينة :

ـ كنتُ أنوي تغير مظهري، لكنني ندمتُ على ذلك.

فأجاب مبتسمًا وهو ينوي إزالة حزني :

ـ أنتِ جميلة دائما حتى وإن قصصتِ شعركِ وغيَّرتي من لونه ستبقين أميرة قلبي.

فأجبتُه ولا تزال نبرة الحزن تغلب على صوتي :

ـ أحتاجك قربي دائمًا.

فقال لي وهو يمسك بيدي :

ـ أشعر بخوفك، أشعر بذلك النور الذي كان يضيء تلك العينين بدأ ينطفئ شيئًا فشيئًا، ما أسبابه؟ تحدثي ولا تخفي عني أيَّ أمرٍ مهما كانَ صغيرًا.

أخبرتُه بكل ما جرى، كان يستمع إليَّ بتمعنٍ.. توقفتُ عن الحديث وقلتُ له :

- وكم بِتُ خائفةً من ذلك المنزل، أشعر أنني غريبة فيه، عمتي الوحيدة التي أطمئن لها، أمَّا البقية بعضهم يكرهني والبعض الاخر أُذكِّره بالماضي.



فقال لي وفي صوته خوفٌ شديدٌ :

- في هذه الحالةِ يجبُ أنْ أطلعكِ على حقيقةِ مشاعري، أنا أحبك، وأتمنى أن تقبلي الزواجَ بي، ستكونين بمأمنٍ معي.

فأجبتُه وأنا شديدة التوتر :

- لن يوافق عمِّي على قرارِ الزاوجِ، هذا قرارٌ متسرعٌ وغيرُ مألوفٍ، كما أنّ فيهِ مجازفة.

أجابَ بانفعالٍ شديدٍ:

- وماذا أفعلُ ؟ أدعكِ في هذا الحالِ، دائمةُ التوترِ والقلقِ، سأشعرُ بالبؤسِ، ولن يغمضَ لي جفنٌ وأنتِ بعيدةٌ عن ناظري.

فقلتُ له :

- أخشى عليكَ من مواجهةِ عمِّي.
قلتُها وأنا أرتعد خوفًا.
سكتَ سعيدٌ لدقائق، فسألتهُ : بماذا تفكِّرُ ؟
أجابَ :
- أفكِّرُ فيكِ، يجب أن نتزوجَ، في هذه الحالةِ سأكونُ واثقًا من حمايتكِ، لا تترَدَدِي يا راوية.
طلبتُ منه أنْ يدعني أفكِّرَ، ليس من السهلِ أن أتخذَ قرارًا خطيرًا بهذهِ السهولةِ.

عدتُ إلى المنزلِ وأنا أفكِّرُ في أمرٍ واحدٍ، إن تزوجتُ بسعيدٍ سيجعلني ذلكَ أتركَ إرثَ والدي، ولنْ أفكِّرَ في استرداده.
سرحتُ بأفكاري واستيقظتُ على صوتِ عمتي تقول :
- هيّا يا حبيبتي الغداءُ جاهزٌ.

يترأسُ عمِّي المائدةَ كالعادةِ، لم ألتفتْ لأحدٍ، ما أخبرني به سعيدٌ كان يشغلُ تفكيري، حتى أنّني لم ألحظ الأطباقَ، وكذلكَ الأشخاصَ، سئِمتُ النظر في وجوههم، سئِمتُ أن أرسم ابتسامةً زائفةً لا تعجبُ أحدًا، ضقتُ ذرعًا منهم، وأصبحتُ أفكِّر جديًا في عرضِ سعيدٍ، وجودي في هذا المنزلِ سيزيدُ بؤسي، فكَّرتُ مرارًا حتى أنني لم أنتظرْ طلوعَ النهارِ لأخبرَ سعيدًا بقراري، قمتُ بمكالمته ليلاً، كان يبدو أنه نائمٌ، لكنه لم يُخفِ سرورهُ الذي باتَ واضحًا من صوتهِ، فقال لي :
- عصفورتي تهاتفني ليلاً، يا لسعادتي.
قلتُ له بصوتٍ خافت :

- سعيد، فكَّرتُ في عرضِكَ ولم أستطعْ الانتظارَ حتى الصباحِ.
أجابني :
- وما هو قراركِ؟، قبلَ أنْ تخبرينني بهِ تأكدي أنّني سأحترمُ ذلكَ القرارِ.
فقلتُ له بنبرةٍ جادةٍ :
- إن كان عرضك للزواج قائمًا...
قاطعني قائلاً :
- ماذا تقصدين بكلمةَ قائمًا، هذه أمنيتي، حبيبتي ألم تفهمي أنكِ كلُّ ما لديَّ في هذه الدنيا، أعشقُكِ وأتمنَّى أن تكوني زوجتي وشريكتي في كلِّ شيءٍ، وكم أتمنَّى أنْ تكوني حبيبتي الأبديةِ التي تسكنُ قلبي ولا تخرجُ منه، إلاّ في حالٍ واحدٍ....
فقلتُ له باستغرابٍ :
- وأيُّ حالٍ يخرجني من قلبكَ يا سعيد ؟
فأجابني :
- إن مِتُّ أو إن أصبحت عظامي رمادًا، في هذه الحال لن يعود لي قلب، لكنني أعدك بأن روحي ستبقى حولك ولن تفارقكِ.
أبكاني ذلك الحديث، وبدأتُ أعصرُ دموعي وأحبسُ أنفاسي حتى لا يعلمَ ببكائي، لكنَّه شعرَ ببكائي، فقال لي :
- لماذ تبكين يا سيدة القلوب ؟
ابتسمتُ وأنا لا أزالُ أبكي وقلتُ لهُ:
- سيدةُ القلوبِ!، ولكنِّي أريدُ أنْ أكونَ سيدةُ قلبكَ بمفردكَ.

فأجابني:

- وأنتِ سيدةُ قلبي، سأنتظركِ غدًا في الساعةِ العاشرةِ عندَ نهايةِ شارعِ منزلكم، لا تتأخري.

فقلتُ له :

- سأكونُ في الموعدِ بإذنِ اللهِ.

أنهيتُ المكالمة، وكنتُ خائفة، حزمتُ حقيبةً واحدةً وضعتُ فيها ما هو ضروري، وتركت البقية، حتى لا يعلم أحدٌ برحيلي.

بعد أن نامَ الجميعُ، خبَّأتُ تلكَ الحقيبةَ في حديقةِ المنزلِ، وعدتُ إلى غرفتي، وبدأتُ بالبكاءِ، شعرتُ باليُتمِ، كم أنا بحاجةٍ لأمي.

بقيتُ مستيقظةً حتى طلعَ النهارُ، وقفتُ عبرَ النافذةِ أتابعهم يخرجون منَ المنزلِ وكنتُ خائفةً من ملاحظةِ أحدهمْ لتلكَ الحقيبةِ.

بعدَ خروجهم، جاءت عمتي تحملُ معها صينيةَ الإفطارِ، مصحوبةً بابتسامةٍ على وجهها، كم سأفتقدها، كم هي طيبةٌ، فاضتْ عيناي بالدمع فاحتضنتني وقالت :

- لماذا كل هذا البكاء هل لأنني أحضرتُ لك الفطور بنفسي ؟ أم هنالكَ سببٌ آخر ؟

كان صوتي مخنوقًا فقلتُ لها :

- كلاّ لا يوجد سببٌ آخر، لكنني تذكرتُ والدتي.

فأجابتْ :

- وأنتِ مثلَ ابنتي يا راوية، لستِ بمفردكِ، الجميعُ هنا أهلكِ.

لكنها لا تعلم ما أتعرض له من أقرب الناس لي، أصبحتُ أبحثُ عن وسيلةٍ للهربِ من عمِّي الذي باتَ يلاحقني ليلاً وأنا نائمة، ليس وحده من يخيفني بل أيضًا منذر بدأ يعترضُ طريقي يوقفني ويقترب مني أكثر فأكثر حتى يلتصقَ بي، صِرتُ أهربُ كلما رأيته.. هي لا تعلم أنني أصبحت أخشى البقاء في هذا المنزل...

وللحظة كنتُ سأبوح لها بكلِّ تلكَ الأمورِ لكنَّني تراجعتُ، اكتفيتُ باحتضانها والبكاءِ على صدرها.

سألتني :

- لماذا كلُّ هذا البكاءِ ؟

بدأتُ أشعرَ بالقلقِ، لم أتوقفْ عن البكاءِ، كنتُ أتمنى أن أعودَ طفلةً أربو في حضنِ أمّي.

توقفتُ عن البكاءِ وطلبتُ من عمتي السماحَ لي بالخروجِ لشراءِ بعضِ الحاجياتِ، لم تعارض لكنها طلبت الذهاب معي؛ ويا ليتها تأتي معي.. تذكرتُ أغنيةً كانت تغنيها أمي عندما تشعر بالوحدة بدأت أدندن بها، وعمتي تبتسم لي وهي تمسح دموعي.

توقفتُ عن الغناء لأن الموعد أزف، حان موعد الرحيل، ودَّعتُ عمتي وذهبت في طريقي. أثناء خروجي رأيتُ ابن عمِّي الأوسط "نادر" أوقفني ليسألني :

- إلى أين أنتِ ذاهبة ؟

حاولتُ أن أخفي خوفي وأجبتُه :

- سأذهب لشراء بعض الحاجيات.

فقال لي :

- هل تريدين أن أوصلك ؟

كانت ضربات قلبي تتسارع فأجبته :

- أودُّ أن أتمشى.

بالرغم من أنه يعيشُ بسلبيةٍ لا حدودَ لها ولم أعتد رؤيتهُ في المنزلِ، فأنا واثقةً من أنَّه لن يذكرَ أنه رآني بمجردِ دخولهِ إلى المنزلِ فقد يلزمَ غرفتهُ أو قد يغادرَ المنزلَ مع رفاقهِ ولا يعودَ إلاّ في اليومِ التالي.

لم أتمكنْ من أخذِ حقيبتي، فتركتُها في الحديقةِ وتوجهتُ نحوَ سعيد دونَ أن آخذ معي شيئًا، تركتُ كلّ شيءٍ خلفَ ظهري ومضيتُ حتى وصلتُ إلى آخر الشارعِ، وكانَ سعيدٌ بانتظاري، شعرتُ بارتياحٍ عندما ركبتُ سيارته، وطلبتُ منهُ أنْ ينطلقَ بعيدًا...

عرفتُ وقتها لماذا تركتْ أمّي كلّ شيء ولم تطالبْ بإرث والدي بعد وفاتهِ، لن تأخذ قرشًا واحدًا دون أن تدفعَ الثمنَ.

● ● ● ●

اتصلتُ برياضٍ وطلبتُ منهُ الحضورَ، جلستُ معهُ وأخبرتهُ بما تعرَّضتُ لهُ، كانَ معاتبًا لي لأنني لم أتحدَّث معه منذُ آخرِ مرةٍ رأيتهُ فيها، لكنني وصفتُ له طبيعةَ الحياةِ في ذلكَ القصرِ، حاولَ أنْ يلتمسَ لي العذر، وفي نهاية حديثي معه طلبتُ منه المساعدة، وأخبرتُه بما أنوي فعله، كان شديد الاستغراب من جرأتي، فلمْ يعتدْ أنْ أقومَ بمثلِ هذا الفعلِ دونَ أنْ أستشيرَ أحدًا، حتى أنَّه لنْ يتمكنَ من معرفةِ الأسبابِ التي دفعتني لفعلِ ذلكَ، طلبَ مني أنْ أجري مكالمةً هاتفيةً لأخبِرَ خالي عمّا أنوي فعلهُ.

أجريتُ مكالمةً مستعجلةً مع خالي إحسان، تحدثنا مطولاً حاول إقناعي بالعودة ونسيان كلّ شيء، أخبرتُه أنَّ عودتي ستكون مستحيلة فجواز سفري بحوزة عمِّي ولا أملك سوى الهويّةِ التي أعطاني إياها، هي كفيلةُ لإتمام مراسيم عقد القران، ولكنها لن تمكنني من العودة إلى سوريا.

أغلقتُ سماعة الهاتف وجلستُ أتحدثُ مع رياضٍ، فطلب مني أن يتعرف على سعيدٍ... جلسا معًا لفترة طويلة حتى أيقن رياض من حبِّ سعيدٍ لي، وأنه ليس طامعًا بأموال عمِّي.

كان رياض وكيلي، وجودهُ معي كان يزيد من ثقتي وطمأنينتي، ومع ذلك لم يكن مسرورًا، ظنًّا منه أنني تسرعتُ في قراري، لم أستطع البوحَ أكثرَ، اكتفيتُ بما أخبرتُه إياه، ما كان يشغلني هو معرفةُ عمِّي بمكاني، فطمأنني سعيد وأكَّدَ لي أنَّه سيحاولُ إنهاءِ جميعِ التزاماتهِ والعودةِ إلى الديارِ.

قلقي الشديد بدأ يزول كلما نظرتُ إلى وجهِ سعيدٍ، فوجههُ يبعث الراحة في نفسي، ابتسامته تشبه ابتسامة الأطفالِ، سُمْرةُ بشرته تجعلني أنسى كل شيء وأنظر إليه.



غادرنا وتوجهنا إلى شقته، بدأتُ أتفحصها، شعرتُ بدفء المكان رغم بساطته، شقةً صغيرةً لكنها مرتبةً ونظيفةً، كانت جميلةً بوجود سعيدٍ فيها.

في أول ليلة لنا كنتُ أشعر بالجوع فقلت له :

- كم أنا جائعة يا سعيد.

فقال :

- "اهرب يا الجوع فليس لك مكانٌ في معدةِ حبيبةُ القلبِ"

أضحكتني هذه العبارة.

نظر بتكشيرة مفتعلة وخلفها ابتسامة مخفية، وقال لي :
- تضحكين على كلامي ؟

اقتربتُ منهُ وقبَّلتهُ على خَدهِ قبلةً خاطفةً، فاحتضنني وبقيتُ بينَ ذراعيهِ أشتمُّ رائحةَ عطرهِ، كمْ تمنيتُ هذه اللحظةِ منذ أن رأيته.

ذهبنا إلى المطبخِ، وقامَ سعيدٍ بإعدادِ العشاءِ، كانَ مميزًا لأنه مصنوع بحُبٍّ، كنتُ أنظرُ إلى سعيدٍ وهو يضعُ الأطباقَ على الطاولةِ كم هو أنيقٌ، هادئٌ، رجلٌ بكل معنى الكلمةِ.

رغم السعادة التي تحيطني، لكنني لا أزال أخشى ردَّ فعلِ عمِّي، خوفي وتوتري الدائم يذهبان عندما يبدأ سعيدٌ بطمأنتي كي لا أقلق، فهو برفقتي دائمًا.

لم يترك سعيد لحظةً تَمرُّ دون أن يُشعرني بلذة الحياة، كل يوم كان يبرهن لي أنني محقة بزواجي منه، وكل ما تركته خلفي لم يعني لي الكثير.

أسبوع حافل بكلِّ لحظاتِ السعادةِ، أقضي معهُ حلمًا، كم أتمنى أن يدوم ذلك الحلم دون أن يعكِّرَ أحدٌ صفونا، فسعيدٌ دائمُ التأثرِ بالقصصِ العاطفيةِ، يستيقظُ باكرًا ويحضِّرَ لي القهوةَ مقدمةً مع وردةٍ حمراءَ.. شغفني حُبًّا فأصبحتُ أعشقهُ بكلِّ تفاصيلهِ، كنتُ أبحث عن رجلٍ يكملني، وكانَ هبةً من السماء، عوَّضني عن كلِّ أحزانِي.

انتهى الأسبوع بكلِّ ما فيه من سعادة، وكنتُ أتمنى لو طالَ قليلاً، ولكن يبدو أنَّ لحظاتِ السعادةِ تمرُّ سريعًا.

بدأ يستيقظ باكرًا من الساعة الثامنة صباحًا ويذهب إلى العمل ويبقى خارج المنزل حتى الخامسةِ مساءً، في تلك الأثناء كنتُ أبتكرُ وسائلَ جديدةٍ لأصنعَ له السعادةَ، أُحضِّر لهُ العديدَ من المفاجآتِ، تعلمتُ منه كيفَ يكونُ الحبُّ، تعلمتُ أن أنسج من عاطفتي وشاحًا أضعهُ حولَ عنقهِ، علّمني كيف أكون قويةً صلبةً، أواجهُ مصيري بتحدٍ، دخلتُ مدرسة حُبِّهِ، وأقسمتُ أن أكونَ طالبةً متفوقةً.

لم يمضِ على زواجنا أكثرَ من شهرٍ واحدٍ، زال عني التوتر قليلاً، ولم تعد تنتابني تلكَ المخاوفِ، إلى أن جاء يومٌ أصبحتْ الساعةُ الخامسة ولم يعد سعيد إلى المنزل، حتى أنه لم يتصل ليخبرني أنّه سيتأخرُ.. زادَ قلقي، مرَّتْ ساعةٌ إضافيةٌ ولمْ يحضرْ، فبدأتُ أتساءل ماذا أفعلُ؟ وأينَ أذهبُ ؟ بدأتُ أبكي من شدةِ القلقِ، حتى قُرعَ جرسُ البابِ، فتسمرتُ مكاني وخشيتُ أنْ أفتحَ، فقد خِفتُ أن أرى عمِّي خلفَ البابِ، ثوانٍ قليلةٍ وفتحَ البابُ وكانَ سعيد، قلتُ بصوتٍ مرتعدٍ من الخوف:

- يا إلهي، قلبي سيقف يا سعيد، ماذا حدث؟ وما الذي أخرك؟ ولماذا قرعت الجرس وأنت تحمل المفتاح ؟

قال لي ضاحكًا :

- عن أيِّ سؤالٍ تريدينَ أن أجيبَ؟

أجبتُه بصوتٍ حادٍ :

- جميعها.

رأيتُ عيناه تذبلان وكان متعبًا، فجلس على الأريكةِ وبدأَ يخبرني أنّه ذهبَ للعملِ في منطقةٍ بعيدةٍ وكان الاتصالُ ضعيفًا.

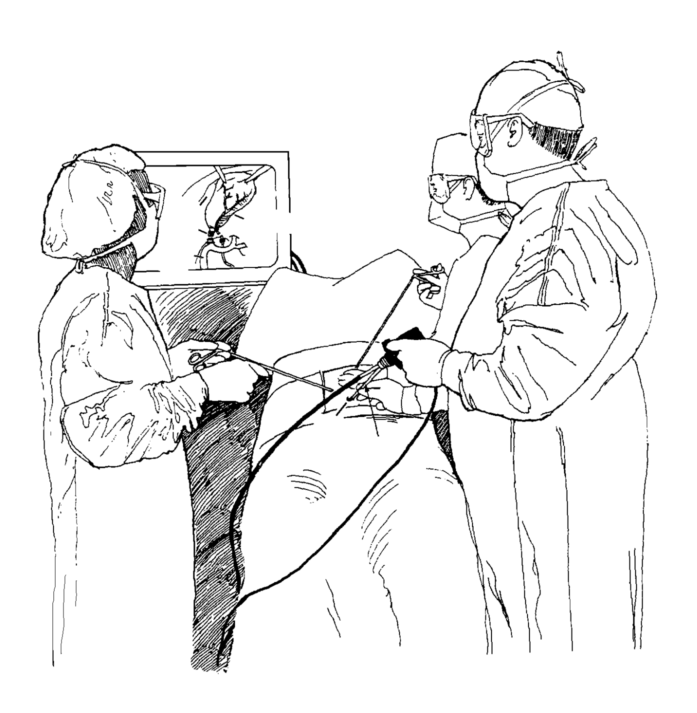
شعرتُ من حديثه أنه يكذبُ عليَّ، لأنّه كانَ مهمومًا، فتركتُه ينام على حِجري كطفلٍ صغيرٍ، بدأتُ ألاعب شعره وأغنِّي له، حتى خلد للنوم، قلتُ في نفسي : غدًا صباحًا سأسألهُ إن كان هنالك ما يزعجه.
غرقتُ أنا أيضًا في نومٍ عمِّيقٍ.

في اليومِ التالي استيقظتُ لأراهُ قد غادرَ باكرًا.. خشيتُ أن يكون غاضبًا مني، اتصلتُ على جواله فوجدتهُ مغلقًا، فبدأتْ الأسئلة تتدافعُ بداخلي : ماذا حدث ؟ وماذا فعلتُ ليغضب مني؟

قرَّرتُ أن أخفِّفَ عنهُ لأنهُ يرهقَ نفسهُ في العملِ كثيرًا، لذلك لنْ أسألَهُ عن أيِّ شيء، سأدعهُ يخبرني بنفسهِ حتى لا يشعرَ بالمللِ، يكفيهِ ما يلاقيهِ من أعباءٍ، أنا أيضًا يجب أن أكونَ متجددة، ارتديتُ ثوبًا ورديًّا ووضعتُ طوقًا برَّاقا على شعري وأعددتُ له عشاءً لذيذًا، ألقيتُ أوراقَ الوردِ الأحمرِ أمامَ البابِ، ورسمتُ قلبًا كبيرًا ووضعتُ بداخلهِ شموعًا وجلستُ أنتظرُ حتى يعودَ سعيد فيفرحُ كثيرًا لهذهِ المفاجأةِ... انتظرتُ طويلاً حتى أصبحتْ الساعةُ الحادية عشرة ليلاً، ولم يُفتح البابُ.

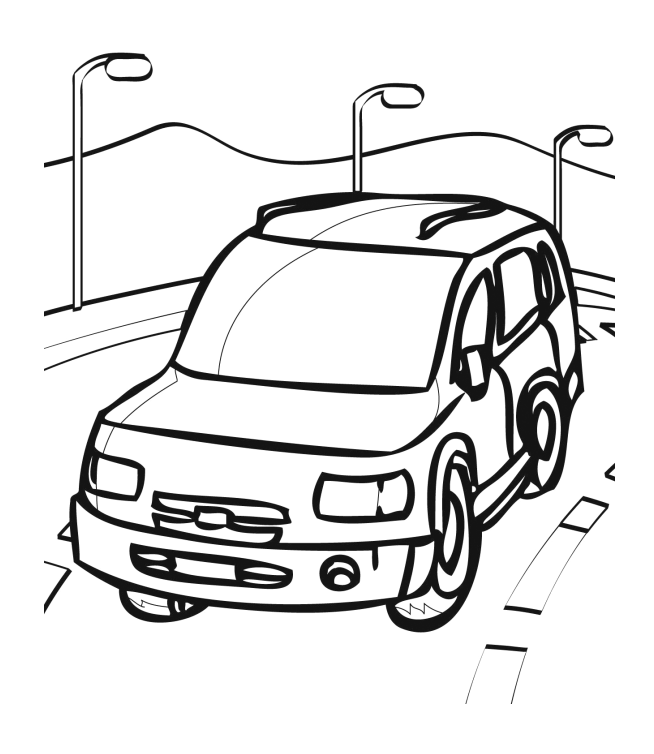
سمعتُ فجأة من يدقُّ الباب بشكلٍ خافت، وكأنه يستغيثُ، في هذه المرة كنتُ قلقةً جدًا لدرجةِ أني فتحتُ البابَ دونَ النظرِ منَ العينِ السحرية، فتحتُ البابَ لأرى سعيدًا ممددًا على الأرضِ غارقًا بدمهِ، من هولِ الصدمةِ احتضنتُه وبدأتُ بالصراخِ حتى تجمَّع الجيران من حولي، وهناك من اتصلَ بالإسعافِ لنقلهِ إلى المستشفى، ركبتُ معه في سيارة الإسعاف ودماء سعيد تغطي ثوبي ويداي، شعرتُ بصدمةٍ وأنا أنظرُ

إلى يدي الغارقتين بدمائه، كم تمنيتُ أن يتعافى، لا أريدُ أي شيءٍ سوى أن لا يطالهُ الأذى.



بعد مرورِ خمسِ ساعاتٍ في غرفةِ العملياتِ خرجَ الطبيبُ، قلتُ في نفسي سيخبرني إنّهُ فارقَ الحياة، تمنيتُ لو كنتُ صمّاء حتى لا أسمعَ الخبرَ السيئ، وضعتُ يداي على أذنيّ، لكنَّ الطبيبَ أخبرني أنَّ سعيدًا في حالةٍ حرجةٍ، أنزلت يديَّ واستمعتُ لما يقولُ الطبيب فأكملَ قائلاً :
لو مرَّتْ الأربع والعشرون ساعة القادمة سيتجاوز مرحلة الخطر.
وبدأتُ أدعو الله أن يأخذَ من عمري ليمدَّ في عمرهِ.

جاء معتزٌ صديقُ سعيدٍ، بدأتُ أخبرهُ بكلِّ ما جرى ويدايَ ترتجفانِ خوفًا، لم أُكملْ كلامي حتى جاءَ الطبيبُ ليخبرني أنَّ قلبَ سعيدٍ توقفَ. ما إن سمعتُ تلك الكلمات حتى تركتُ الطبيبَ والمكانَ، وبدأتُ أركضُ خارجًا في الشارعِ دونَ أن أعرفَ وجهتي حتى توقفتْ سيارة قُربي وفُتِح البابُ، وبدأَ السائقُ يشدني إلى الداخلِ ويرغمني على ركوبِ السيارةِ، صُدِمتُ لرؤية السائقِ فقد كان منذرًا، ماذا يفعل قُرب المستشفى؟ الحالة المزرية التي كنتُ بها لم تدعني أقاومُ الصعودَ معهُ، كان قلبي ينزفُ من الألمِ، بكيتُ حتى أنّ أنفاسي كادتْ تختنقُ، لم أعلمْ حتى ماذا أقول، وما هي العبارةُ التي أتفوهُ بها...



كان يقود بطريقةٍ جنونيةٍ لساعاتٍ حتى أوصلني إلى منزل عمِّي، أمسكتُ بالمقعدِ ورفضتُ النزولَ، أنزلني من السيارةِ رغمًا عني، دخلتُ ووجدتهم مجتمعين، شعرتُ أنهم عُصبةٌ من المجرمين، تركتُ الجميع لأنظر إلى عيني عمِّي، وأخبره : هل تشعر بالرضى ؟ هل أنت بشرٌ مثلنا أم أنت وحشٌ بهيئة إنسانٍ ؟

أمسكني من ذراعي بقوةٍ، ولكنّني لم أشعرْ بالألمِ، كنتُ ميتةَ الإحساسِ. بدأَ يصرخُ في وجهي، لكنني لم أستمعْ إليهِ، كنتُ أحدِّقُ في عينيهِ، حتى قالَ تلكَ العبارةِ :

- فعلتِ كما فعلتْ والدتك، لن أدعكِ تعيدين الكَرَّة، ستبقين هنا محبوسة في غرفة قذرة، أمام ناظري.

ضحكتُ ضحكةً هستيرية، وقلتُ له:

- سأظلُّ أُذكِّركَ بها، وسيظلُّ قلبُكَ يحترقُ حتى يصبحَ رمادًا.

أثارت هذه العبارات جنونهُ، قام بصفعي، وهذه هي المرةُ الثانيةُ التي يصفعني بها، لنْ أقبل أن يتحكم بي، ولكن من أنا ؟.

أمسكني من شعري وألقى بي في غرفةٍ حقيرةٍ لا يوجد فيها أي منفذٍ للهواءِ.

استمريت بترديدها :

- سيظل قلبك يحترق حتى يصبح رمادًا.

علمتُ في هذه اللحظة أنني ضعيفة مثل أمي، علمتُ أنها قد وقفتْ مثلَ ذلك الموقف، وأنّها قُتلت مثلي. في هذه اللحظة عرفتُ أنني وقعت في الفخِّ بعودتي إلى منزلِ عمِّي، ولم أعلمْ ذلكَ إلاّ بعدَ فواتِ الأوانِ.

بالرغم من رداءةِ الغرفةِ إلاّ أنني لم أشعرْ بها، بكيتُ وبكيتُ، وتمنيتُ أن ألحق بسعيد.

استفقتُ من حالة اليأسِ تلك وبدأتُ أستغفر الله، شعرتُ بدوارٍ خفيفٍ، وأصبحتْ معدتي تؤلمني؛ لا أعلمُ إن كانتْ معدتي هي التي تؤلمني أم هوَ أمرٌ آخرٌ. طلبتُ من الخادمةِ عندما أحضرتْ لي وجبةَ الطعامِ أن تخبر عمتي بأنني أريد رؤيتها دونَ علمِ أحدٍ، لم أعدْ أثقُ بسواها.. بعد دقائق جاءت عمتي وهي محمرة العينين، كأنها باكية، احتضنتني، أخبرتُها بشكّي أن أكونَ حاملاً.

نظرتْ إليَّ باستغراب وقالت :

ـ كيف؟ ومَنْ والده ؟

قلتُ لها صارخة :

ـ أنا متزوجة، ألا تعلمين ؟ ألم يخبرونكِ بالمؤامرةِ التي فعلوها، ألم يخبرونكِ بأنهم قتلوا زوجي ؟

أمسكتني من ذراعي وقالت لي :

ـ ما الذي تقولينه؟ ولماذا هربتِ من المنزل؟

أبعدتُ يديها عني وأجبتُها :

ـ إنني متعبة ولا أستطيع أن أخبرك بالذي جرى.

فقالت لي بنبرة بائسة :

ـ لماذا فعلتِ ذلك يا راوية، ما الذي دفعكِ لفعل ذلك ؟

نظرتُ لها نظرة ساخرة وقلتُ لها :

ـ ألا تعلمينَ لماذا فعلتُ ذلك الأمرَ؟

صمتتْ لأنها تعلم الإجابة ، لكنها سألتني :

- ماذا تريدينَ أن أفعلَ لكِ ؟

قلتُ لها :

- أريدُ الذهابَ إلى الطبيبِ، أريدُ أن أتأكدَ من حملي.

وعدتني أن تذهب معي ، وقالت لي :

- غدًا صباحًا سآخذكِ إلى الطبيبِ.

في اليوم التالي وبعد أن غادر الجميعُ ذهبنا إلى طبيبةٍ تعرفها عمتي، طمأنتني الطبيبة بأني حامل في الأسبوع الثاني، وأن الجنينَ بوضعٍ جيدٍ، وأعطتني بعض المقويات، وحدَّدتْ لي موعدًا آخرَ، وأن أظلَّ على اتصالٍ معها إن حدثَ معي أيُّ طارئٍ.

خرجنا من عيادةِ الطبيبةِ وركبنا السيارةِ للعودةِ إلى المنزلِ، كم تمنيتُ لو أستطيع القفزَ من السيارةِ، لكنْ لنْ أجازفَ بحياة ابني، هذا ما تبقى لي من سعيدٍ، سأحافظ عليه بكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ.

في طريقنا توقفتْ السيارة عند إحدى الإشارات الضوئية، نظرتُ عبر النافذة فرأيت قطة تحاول بشتى الطرق إبعاد مجموعة من الأولاد عن أطفالها، كانت تقاتل بشراسة كبيرة، في هذه اللحظة قرَّرتُ أن أستبسل أنا أيضًا بالحفاظ على طفلي.

عدتُ إلى السجنِ الذي يحبسونني به، أصبحتُ سجينة منزلهم، يجب أن أتوَّخَى الحذرَ، من السهلِ أن يقوموا بقتلِي، دونَ عِلمِ أحدٍ، أتمنى أن أهربَ من هذا المنزل، لا أريدُ للطفلِ أن يترعرع في هذا المنزل.

• • • •

أصبحتُ أنتظرُ موعدَ الطبيبةِ بفارغِ الصبرِ، سأخرجُ من هذا المنزلِ حتى وإن كان لِساعاتٍ قليلةٍ.. في هذه المرةِ علمتْ زوجةُ عمِّي بخروجي وأخبرتْ عمِّي، فقامَ بدوره بالطلبِ من عمتي الحضورَ إلى غرفة المكتب... دخلتْ وأغلقتْ البابَ، قام بسؤالِها عن سببِ خروجها برفقتي، لم تستطعْ الكتمانِ، أَخْبَرَتْه بحملي، صعدَ مسرعًا إلى غرفتي وانهال عليَّ بالضربِ، أرادَ إجهاضي، ضربني بقسوةٍ، كانت قدمه تركلني وتلقي بي في كلِّ صوبٍ، كان يسعى لقتل الماضي أثناءَ ضربهِ لي.. وقفت عمتي تفصلُ بيننا تحاولُ إيقافهُ، لكنّ هذا الرجلَ كان كالوحشِ الضاري، أمسكني وألقى بي إلى حافةِ الطاولةِ، فقدتُ الوعي، ولم أستعدْهُ إلاّ بالمشفى.

عندما استيقظتُ بدأتُ أنادي :

- هل يوجدُ أحدٌ هنا ليضيء الغرفة، لماذا الستائرُ مقفلةٌ ؟

لم أعلمْ بوجودِ عمتي بقربي وكذلكَ الممرضة التي كانت برفقتها، قامت عمتي بالتحدث فعلمتُ بوجودها، قلت لها:

- ما سببُ هذه العتمة ؟

تركتني عمتي وذهبتْ لاستدعاء الطبيب، عندما جاء ليفحصني وضع نورًا دائريًا صغيرًا، رأيتُ وميضًا خافتًا علمتُ أنني فقدتُ بصري، لكن الطبيبَ قالَ إنّه قد يكونُ فقدانًا مؤقتًا للبصرِ، يزولُ بعد زوالِ الصدمةِ.

بكتْ عمتي على حالي، كانت تكفِّرُ عن ذنبِها ببقائِها قُربِي ليلاً كأنها حارسي الأمينِ، أسمعُها وهي تتحدثُ معي تظنني نائمةً : " ليتكِ لم تعودي، أحييتِ الماضي الذي ظنناه ماتَ، لم يستطعْ الانتقامَ منها لأنها هربتْ مع ماجد، ولكنكِ عدتِ وفتحتِ كلَّ الجروحِ".



قلتُ لها :

- عمتي لازلتِ هنا ؟

أجابتني :

- نعم يا بنيتي أنا بقُربكِ.

سألتُها :

- ماذا تخفين عني ؟ أخبريني، أحتاجُ أن أعرفَ لماذا يكرهني لهذهِ الدرجةِ ؟ لماذا يريد قتلي ولماذا يطاردني كأنني عشقه القديم ؟ هل كان يحب أمي؟ أخبريني.

أجابتْ بصوتٍ متعبٍ :

- نعم كان يحبُّها، أحبَّها من أولِ لحظةٍ رآها، لكنها كانت مغرمةً بماجدٍ، وتزوجا رغم معارضةِ والدي، فترك البلدَ وسافرَ إلى الشامِ ليبدأَ حياةً جديدةً، وعاشَ هناكَ وسمعنا بوفاتهِ، وحضرنا الجنازة وكانت قلوبنا تنفطرُ ألمًّا عليه.

قلتُ لها باستغراب :

- لكنني لم أرَ أحدًا منكم.

أجابتني :

- نعم، والدتك لم تسمحْ لنا برؤيتكِ.

وأكملتْ قائلة :

- عندما طلبتْ من ناصرٍ إعطاءها إرثَ زوجها، أقنعها بالعودة إلى هنا حتى ينهي كافة الأوراقِ...

قاطعتُها :

- وفعلَ معها كما كانَ ينوي فعلهُ معي.

أجابتني باستنكار :

- لم يكنْ ينوي فعلَ أيِّ شيءٍ بكِ، فأنتِ ابنةُ أخيهِ.

أجبتُها بانفعالٍ :

- أنتِ لا تعلمين، حتى أنّني لا أستطيعُ إخباركِ بأيِّ شيءٍ.

سألتني وهي مرتابةٌ :

- ماذا تقصدين ؟ هل حاولَ التعرضَ لكِ ؟

سألتُها سريعًا :

- لماذا تجلسين هنا، هل تشعرينَ بالذنبِ ؟

فأجابتْ باستغراب :

- لم أفعل ما يستحقُّ لأشعرَ بالذنبِ.

قلتُ لها :

- ولكنكِ لم تستطيعينَ قولَ الحقِّ.

فقالتْ بنبرةٍ متعجبةٍ :

- ماذا تعنين ؟

أجبتُها بصوتٍ يئنُّ من التعب :

- تركتِ والدتي تواجهُ مصيرها بمفردها، وتركتني في أحلكِ الأوقاتِ، إلى متى ؟ لن أدعه يفعلَ بي ما كان ينوي فعلهُ بأمي، لن أدعهُ ينتقمَ مني، وسآخذُ حقي منكم جميعًا.

تركتني وذهبتْ تركضُ خارجًا، أظنُّ أنَّها خرجتْ تبكي، لقدْ شعرتُ بتأنيبِ الضميرِ، فلقد أثقلتُ عليها بالكلامِ.

جاءتْ الممرضةُ فسألتُها :

- لماذا لم تحضرْ الشرطةُ لأخذْ أقوالي ؟ لقد تعرَّضتُ لاعتداءٍ، والكدماتُ لا تزالُ تظهرُ على جسدي، وكذلكَ بصري الذي فقدتُه.

أجابتْ بنبرةٍ عاديةٍ لا تدلُّ على التأثرِ لحالي :

- هذ المشفى ملكٌ للسيد ناصر، لن تحضر الشرطة حتى لا تُثارَ المشاكلُ.

تنهدتُ وقلتُ في نفسي : " ألا يوجدُ هنا من يستطيعُ مساعدتي ؟ ألا يوجدُ من يمتلكُ ضميرًا".

لكن أسئلتي لم تلقَ لها إجابةً.

كتبَ لي الطبيبُ مغادرةَ المستشفى بعد أن اطمأننتُ على جنيني أنه لم يتأثرْ من كلِّ ما حدثَ لهُ، وبعدها عدتُ إلى المنزلِ وأنا عازمةٌ على الهربِ مرةً ثانيةً، عدتُ إلى غرفتي القديمةِ الكبيرةِ بحجمها؛ ولكنها تخلو من الهواءِ النقيِّ، فهذا أقصى ما يستطيعونَ فعلهُ للتكفيرِ عن ذنبهم. لم يعدْ يُسمحُ لعمتي برؤيتي، أصبحتْ الخادمةُ تحضر لي الطعامَ، ولا يُسمح لها حتى بالحديث معي.

في يومٍ دقَّ البابُ ودخلَ أحدهم إلى غرفتي، بدأتُ أرجع للوراء حتى التصقتُ بالحائطِ، فاقتربَ مني ذلك الزائرُ أكثرَ فأكثر، وما إن بدأَ الحديثَ حتى عرفتُه، إنها ابنةُ عمتي؛ جاءتْ لتطمئنَّ عليَّ، وبدأَتْ تتحدثُ وتسألني :

- كيف أصبحتِ اليومَ ؟

أجبتُها ساخرة :

- كما أمسيتُ البارحة.

سألتني بصوتٍ خافتٍ :

- هل أنتِ غاضبةٌ مني ؟

سكتُّ قليلاً ثم قلتُ لها :

- هل يحزنكِ إنْ قلتُ لكِ: نعم ؟

أجابتني مستنكرةً :

- ولكنّني لم أفعلْ لكِ شيئًا.

أجبتُها بصوتٍ بائسٍ :

- لماذا لم تفعلي لي شيئًا، لماذا لم تساعديني ؟

بدأ صوت بكائها يعلو، وبدأتُ أتحسّسُ وجهها وأمسَح دموعها، وقلتُ لها وأنا أشعر بالندم على قسوتي معها :

- سامحيني، ما قصدتُ أن أجرحكِ بكلامٍ قاسٍ.

توقفتْ عن البكاء وأمسكتْ يدي وقالت :

- سأساعدكِ على الهرب، فما فعلتِهِ كان صوابًا، هم يحرِّمون علينا أن نتزوجَ بمن نحبُّ، ويُسمح لهم فعل ما يشاءون.

خشيتُ أن تكون مكيدةً فأخبرتُها أنني لا أنوي الهرب، وجدتُها تشدُّ على يدي وتقول لي :

- لا تخشي شيئًا، أعلم أنكِ تخافين مني لأنكِ لا تثقين فيّ لكنني أسعى لمساعدتكِ.

سحبتُ يدي من بين يديها وقلتُ لها :

- ولماذا تجازفين بمساعدتي ؟

قالت وصوتها فيه مزيجٌ من القلقِ والخوف :

- لأنني أمتلك مشاعرَ صادقةً كتلك التي كنت تعيشينها ولكنني لا أجرؤ على البوحِ بها حتى لا يحدثَ لي كما حدثَ لكِ.

سكتُّ عن الكلامِ ولم أخبرها بحقيقةِ أنني أفكِّر جديًا في الهرب، ولم أرفض عرضها، فقد أخبرتُها أنني سأفكِّر مليًا في الأمر، كانَ يصعبُ تصديقها، فأنَا لم أرَ ملامِحَ وجهها حتّى أعلمَ حقيقةَ ما جاءتْ بهِ.

بدأتُ أجلسُ مع نفسِي وأفكِّر، كيفَ لي أنْ أهربَ من هذا المنزلِ، أحتاجُ لأنْ أتحدَّثَ مع رياض... وفي عزِّ الأزمةِ تذكرتُ الهاتفَ الذي أعطانِي إياهُ رياضُ، لقد خبَّأتُه في مكانٍ ما، بدأتُ أبحثُ عنه في

خزانةِ الملابسِ، بحثتُ مطولاً حتى وجدتهُ، لا يوجدُ عليهِ سوى رقمٍ واحدٍ، إنه رقمُ رياضٍ.. اتصلتُ به فأجابَ، عندما سمعتُ صوته بدأتُ بالبكاءِ وطلبتُ منه أن يأتي لأخذي من هذا المنزلِ فهم يحبسونني ويمنعونني من رؤيةِ أيِّ أحدٍ، قلت لهُ أن يتصلَ بمعتزٍ صديق سعيدٍ ويحضرَ لي عنوانَ أهلِ سعيد.

انتظر حتى أنهيتُ حديثي وأجابَ:

- لن أقوَ على مجابهتهم لذلك سأفكّرَ بطريقةٍ لتهريبكِ انتظري مني اتصالاً بعدَ يومين لأخبرك بما يجبُ فعلهُ.

أنهيتُ حديثي معهُ ولم أخبرهُ أنني فقدتُ بصري، وضعتُ رأسي على الوسادةِ وذهبتُ في نومٍ عمِّيقٍ.

استيقظتُ في الصباح لأرى نورَ الشمسِ يضربُ في مقلتيَّ، إنني أبصرُ، حمدتُ الله وشكرتُ فضله، فقد أعاد لي بصري، قرَّرتُ أن أخفيَ هذا الأمرَ حتى عن عمتي، لأنني لم أعد أثق بها.

بعد يومين هاتفني رياضُ وبدأنا نخطِّطُ سويًا كيف سأهربُ منَ المنزلِ، كان يتحدث لي وفي صوته نبرةٌ سارةٌ، عندما سألتُه عن سببِ ذلك السرورِ في صوته أجاب :

- أحمل لكِ أخبارًا سارَّة، سأدعها مفاجأةً لكِ.

قلتُ له :

- أيُّ سرورٍ؟ بعدَ وفاةِ سعيدٍ لم يعدْ هنالكَ ما يسرُّ.

فأجابني :

- عندما أراكِ سأخبركِ.

فقلتُ له :

- رياض، أرجوك أن تسعى لإخراجي من هذا المكان.

فقال لي :

- لا تقلقي يا راوية، لن أدعكِ بمفردكِ.

أنهيتُ حديثي معه وخلدتُ للنوم.

• • • •

جاءتْ عمتي في الليل تتسللُ إلى غرفتي، فتحتْ البابَ وتوجهتْ نحوي وعيناها ممتلئة بالدموعِ، تشعرُ بالأسى على حالتي، ما عدتُ أشعرُ بحبها، كما أصبحتُ أراهم جميعًا كالأفاعي، استيقظتُ فسألتها :

- ماذا تريدين ؟

أخبرتني أنهم معزومونَ جميعًا على العشاءِ في منزلِ أحدِ الأقرباءِ وطلبتْ مني الحضورَ.

قلتُ لها :

- كيفَ أحضرُ وأنا كفيفة، لا أرغبُ بسماعِ عباراتِ الشفقةِ، أُفضِّلُ البقاءَ بمفردي في المنزلِ.

فقالت لي :

- حسنًا سأبقى معكِ، حتى لا تشعرِي بالوحدةِ.

أجبتُها :

- لا داعي، اذهبي ولا تقلقي، فقدْ اعتدتُ الوحدة.

كانت تنوي قول أمرٍ ما لكنها تراجعت، تركتني وذهبت، وفَّرَت عليَّ المزيدَ من العناءِ.. إنها فرصةٌ بالنسبةِ لي.

اتصلتُ برياض وقلت له أن يحجز لي على أول طائرة تقلع إلى الأردن، وطلبتُ منه أن ينتظرني خارج المنزل بعد مغادرتهم إلى تلك العزيمة.

وفي اليوم الثاني، انتظرتُ أن يأتيَ المساءُ، كانت عقاربُ الساعةِ تتحركُ ببطءٍ شديدٍ، كمْ أتمنَّى أن أحرِّكَ تلكَ العقاربَ فينقضي الوقتُ سريعًا.

بعدَ طولِ انتظارٍ جاءَ وقتُ ذهابهم، صعدتْ عمتِي إلى غرفتِي لتطمئنَّ عليَّ، فقلتُ لها :

- لا تغلقي الباب بالمفتاح.

نظرتْ لي وابتسمتْ، قبَّلتني واحتضنتني وتركت البابَ مفتوحًا.

وقالتْ لي قبل أن تغادر:

- سامحيني.

للوهلة الأولى ظننتُ أنَّها تعلمُ برحيلي، لا أعتقدُ أنَّها تعلمُ بأيِّ شيءٍ، لو كانت تعلمُ لأخبرتْ عمِّي.

غادرتْ عمتي، وجاءَ بعدها من فَتَحَ البابَ ثانيةً، لقدْ كانت منالُ، وقفتْ عندَ البابِ وقالتْ لي :

- سأدعُ البابَ مفتوحًا وسأتركُ لكِ هذه المفاتيحَ.

اقتربتْ مني ووضعتْ المفاتيحَ قربي وأكملتْ حديثها :

- سرقتُها من خالي ناصرٍ، لنْ يكتشفَ أمرها إلا بعدَ عودتنا.. باستطاعتكِ الآن الهربَ دونَ أي معاناةٍ.

نظرتُ لها وحدَّقتُ بعينيها، تراجعتْ من الصدمة وقالت لي :

- راويةُ أنتِ مبصرةٌ ؟

أجبتُها :

- نعم.

سألتني بنبرةِ صوتٍ متعجبةٍ :

- منذُ متى ؟

كان صوتي يختبئ خلفَ حواجزِ الخوفِ وأنا أجيبها :

- منذُ البارحةِ.

تنهدتْ وقالتْ لي :

- إذًا لن أخشى عليكِ، ستغادرينَ دونَ أي متاعبٍ، سأجعلُ الحارسَ يغادر أيضًا حتى تتمكنين من الهربِ.

اغرورقت عينُها وقالت لي :

- هل أستطيع أن أحضنك قبل الرحيل ؟

لم أتحدثْ، فقطْ اكتفيتُ باحتضانِها بقوةٍ، ودَّعتُها وكنتُ أودِّعُ معها كلَّ اللحظاتِ التي عشتُها في هذا المنزلِ.

كانت ضرباتُ قلبي تتسارعُ فقدْ حانتْ اللحظةِ الحاسمةِ، بدأت أتجهزُ للرحيلِ وأتابعهم بأنظاري وهم يغادرون.

وبعد عدةِ دقائقٍ من ذهابهم سمعتُ من يصعدُ نحوَ غرفتي، تفاجأتُ بمنذرٍ، جاءَ وجلسَ قُربي، كانَ يظنُّ أنّني لازلتُ كفيفةً، ما لا يعلمهُ أنَّني أبصرتُ، وأستطيعَ رؤيته، بدأَ يتحدثُ معي :

- هل أنتِ مسرورةٌ وأنتِ كفيفةٌ؟ لماذا هربتِ وتزوجتِ بذلكَ الوضيعِ؟

أجبتهُ بغضبٍ :

- اسمهُ سعيدٌ، وهو ليسَ وضيعًا، هو رجلٌ شهمٌ بكلِّ ما تعني الكلمةُ.

فقالَ لي :

- هو جبانٌ، قتلتُه وطعنتُه مرارًا ولم يستطعْ المقاومةَ.

ذُهلتُ ممَّا قَاله، كنتُ أعلمُ أنَّهم مَنْ قتلوا سعيدًا، لكنْ لم أتوقعْ أن يقتلوه بأيديهم، لُطخت أيديهم بالدمِ.

وضعتُ يدي على فمي لأسكتَ صوتي المحترقَ من الألمِ وبدأتْ دموعي تتساقطُ، ولا يزالُ يتحدثُ :

- أحببتُكِ منذ أن رأيتكِ، لكنكِ هربتِ مع ذلك الغبيّ، بحثتُ عنكِ مرارًا حتى علمتُ أينَ تسكنان، ذهبتُ إليه وهددتُه إنْ لمْ يطلقكِ فسيخسر، لكنَّهُ غبي، لا يعلمُ أنَّني لا أدع أحدًا يأخذ منِّي أي شيءٍ أحبه.

نهضتُ من جوارهِ وأنَا أصرخُ في وجهِه :

- لستُ سلعةٍ، ولنْ أسمَح لكمْ أن تؤذوني.

هجمَ عليَّ كالذئبِ الذي يهجم على الفريسة، هربتُ منْه ليلحقَ بي، فضربتُه بالزهريةِ على رأسهِ فوقعَ أرضًا مغشيًا عليهِ، وذهبتُ إلى غرفةِ المكتبِ وبدأتُ أجرِّبُ المفاتيحَ التي بحوزتي حتى تمكنتُ من فتحِ البابِ، وفتحتُ الخزنة أيضًا بمفتاحٍ كان من ضمنِ المفاتيحِ، لازلتُ أحفظُ أرقامها فهيَ محفورةٌ في ذاكرتي، فوجدتُ بداخلها جوازَ سفري ومبلغًا من المالِ وبعضِ الأوراقِ، قمتُ بأخذِ تلكَ الصورةِ حتى لا يبقى له شيءٌ من الماضي... وضعتُ جميعَ الأشياءِ في حقيبةٍ وأسرعتُ خارجًا.



وجدتُ "رياض" ينتظرني خارجَ المنزلِ، أخذَ مني الحقيبةَ، وتوجهنا نحو المطار.

قلبي لا يزالُ يدقُّ باستمرارٍ والقلقُ يغلبُ عليَّ، لنْ أرتاح إلاّ بعدَ أن أصعدَ إلى الطائرةِ، وسأرتاح أكثر بعد إقلاعها.

كانَ معتزٌ بانتظارنا، وصلنا متأخرينَ، لذلكَ قمتُ بإعطاءِ معتز المالَ وطلبتُ منه أن يحوِّلَ المبلغَ على رقمِ حسابٍ سأعطيهِ إياهُ عنَد وصولي، أصبحتُ أهرولُ لأصعَدَ إلى الطائرةِ ورياضٌ يضحكُ علي ويقول لي:

- تمهلي، لا تخافي، لن تقلعَ الطائرةُ بدوننا.

مهما قلتُ له عن الذي حدثَ لي فلنْ يعلمُ ما بداخلي.

.

• • • •

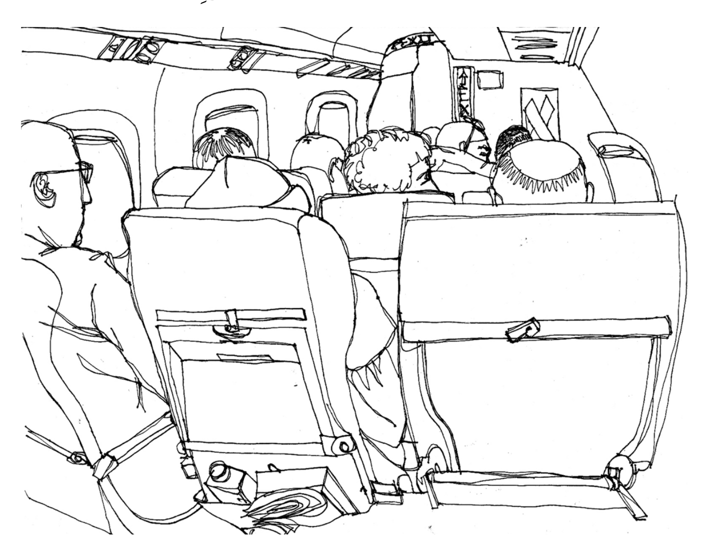
صعدنا إلى الطائرةِ، وجلست على المقعد، حتى أنني ربطتُ حزام الأمان قبل أن تقلع الطائرة، كنت أريد أن التصق بالمقعد فلا أنزل منها فهي طريقُ النجاة... استأذنَ رياض ليذهبَ إلى مقعدهِ، فقلتُ لهُ بصوتٍ مرتعشٍ وأنا أمسكُ يده :

- لماذا لم تحجز بقربي؟

فقال لي بنبرةٍ هادئةٍ :

- لم أجدْ مقعدينِ قريبين، لا تقلقي ستقلعُ الطائرةُ وأنا سأجلسُ قريبًا منكِ

جلستُ أنظر إلى النافذةِ، وبدأتْ الطائرة بالإقلاعِ.



جاء رجلٌ يجلسُ بقربي، لم ألتفتْ نحوهُ، كنتُ أنظرُ من النافذةِ أترقبُ ساعةَ الإقلاعِ، لكنَّ الرجلَ الذي يجلسُ على المقعدِ بجانبي بدأَ يضايقني، وأصبحَ يقتربُ مني أكثرَ فأكثر، فصرختُ في وجههِ :

- ألا تملك بعض التهذيب ؟

ونظرتُ إليه، وشهقتُ، حتى أنَّ الركابَ سمعوا تلكَ الشهقةَ، وبدأوا يبحثونَ عن مصدرِ الصوتِ.

جاءت المضيفةُ تطمئنُ عليَّ إن كنتُ بخيرٍ ، أجبتُها وأنا مبتسمةٌ :

- لا تقلقي، أنا بأفضلِ حالٍ.

نظرتُ إلى ذلك الرجلِ وقلتُ لهُ :

- هذه المرةُ الرابعةُ التي تسعى فيها لإيقافِ قلبي

فقال لي :

- أفديكِ بقلبي، يا نور قلبي.

تأملتُ ملامحه وقلتُ له :

- كيفَ قيلَ لي إنَّ قلبَك قد توقفَ، هلْ أنتَ حقًا سعيدٌ، أم أنني أتخيل ذلك ؟

أجابني :

- كلاّ أنا سعيد، بشحمي ولحمي.

وضحكَ ضحكةً بسيطةً وقامَ باحتضاني.

سألتُه وأنا لا أزال بين ذراعيه :

- كيف عدتَ للحياة ؟

أجابني بصوته الهادئ الرزينِ :

- بعد مغادرتكِ تمامًا حسب ما قاله لي معتز، جاء الطبيب ليخبرك أن قلبي عاد للنبض ثانية، خرج معتز للبحث عنكِ لكنه لم يجدكِ.

رفعتُ رأسي ونظرتُ له قائلة :

- اختطفني منذر، وأرغمني على العودة إلى المنزل.

أجابني وهو يحدِّق بي :

- بعد أن تماثلتُ للشفاء طلبتُ من معتز أن يقوم بالسؤال عنكِ، لكنهم أخبروه بأنهم لا يعلمون عنكِ أيَّ خبرٍ.

بدأتْ عيني تفيض بالدمع :

- كنتُ سجينةً داخلَ منزلهم.

مسحتُ دموعي المتساقطةِ وأكملتُ حديثي قائلةً :

- أنا أيضًا عندي لك مفاجأةٌ.

فقال لي :

- حقًا ؟.. ما هي ؟

أكملَ كلامهُ وهو مبتسمٌ :

- كمْ أنا سعيد بالجلوسِ قربكِ والاستماعُ لصوتكِ.

ابتسمتُ، وقلتُ له :

- أنتَ سعيدٌ واسمكَ سعيدٌ ؟

وبدأنا نضحكُ، رغم أنَّه سببٌ سخيفٌ لكننَّي بحاجةٍ للضحكِ.

أعاد السؤالَ :

- ما هي تلكَ المفاجأة ؟

أجبتهُ وعيناي ترقصانِ فرحًا :

- أحمل في أحشائي وليَّ العهدِ.

لم ينطق بكلمة، وضع يده على بطني وأجابني بدهشة :

- هنا ؟ هل ابني هنا ؟

حرَّكتُ رأسي وأنا أقول :

- نعم هنا ابننا.

ونِمْتُ على كتفه، وكم شعرتُ بالدفء والراحة والأمان وأنا معهُ.

• • • •

وصلنا إلى مطارِ عمّانٍ، كانَ والد سعيدٍ وأخوهُ في انتظارنا، وترحيبهما بي في غايةِ الحبِّ، شعرتُ بأنَّني ابنتهم لستُ مجردَ زوجةَ ابنهم... الآن يمكنني أنْ أخلُدَ للنومِ دونَ الشعورِ بالقلقِ

في اللَّيلِ عندما ذهبنا للنوم، أخبرتُ سعيدًا بأنني سرقتُ أوراقًا مهمة من خزنة عمِّي، ولابد أن يتصل بنا حتى يستردَّ تلكَ الأوراقِ.

لم يرقْ لهُ ذلكَ الأمرِ فقال لي :

ـ لا نريدُ منه مالاً، يكفينا ما لقينا منهم.

أجبتُه بصوتٍ حادٍ :

ـ أنا لا آخذ منهم صدقةً، هذا إرثُ والدي، لنْ آخذَ قرشًا ليسَ لي، أريدُك إلى جانبي وأريدُ منكَ أن تتفاوضَ معهُ.

فقال لي :

ـ هل أنتِ واثقةٌ من اتصالهِ بنا ؟

أجبتُه بصوتٍ جادٍ :

ـ أجلْ أنا شديدةُ الثقةِ، الآن لا سلطةَ له علينا، فنحنُ لسنا في نطاقِ مملكتهِ.

مرَّ أسبوعٌ ولم يتصلْ عمِّي ناصر أو يرسلَ أحدًا من طرفهِ حتى يفاوضني على تلكَ الأوراقِ.

وبعد مرور شهرٍ كاملٍ وردني اتصالٌ من محامٍ يطلبُ لقائي، توقعتُ ذلك، وكنتُ قد اتفقتُ سابقًا مع سعيدٍ على مطالبي، ففوضتُهُ بالحديث نيابةً عني، فقام بتحديد موعدٍ للقائنا في أحدِ المطاعمِ حتى يكون مكانًا حياديًا بين جميع الأطراف.

جئتُ برفقةِ سعيدٍ، وعندَ دخولنا ، لم يكنْ المحامي بمفردهِ، كانَ عمِّي برفقتهِ، وهذا هو الطبيعيّ يجب أن يكون حاضرًا في آخر لقاءٍ بيننا.. لم يتحدثْ عن المال الذي أخذتُه منه بل كان يريد الأوراقَ التي سرقتُها من الخزنةِ، كنتُ مصرَّةً أن يردَّ لي كافة حقوقي، وتعويضًا عن كلِّ ما جرى لي ولزوجي، كانَ على استعدادٍ لدفعِ أي مبلغٍ مقابلَ تلكَ الأوراقِ، لذلك اتفقنا على موعد آخرَ يسلمني به نقودي وأسلمهُ أوراقهُ، كنتُ أتوجسُ منه خيفةً، لكن وجودَ سعيد قربي ووجودنا نحن الاثنانِ في جوارِ عشيرتهِ كان يريحني كثيرًا، كما أنني فوضتُ أمري إلى الله، وما عدتُ أخشى أحدًا.

اتفقنا على أن نلتقي في نفسِ المطعمِ، وعندما حضرنا وجدنا عمِّي والمحامي الذي برفقتهِ بانتظارنا، قام المحامي بتحضيرِ كلِّ ما يلزم لأوقِّعَ على استلامِ كافةِ حقوقي، فلا أعاود المطالبة بإرثي ثانيةً، مع أنني لم أكنْ أنوي مطالبتهُ بأيِّ شيءٍ آخرِ فقدْ لقيتُ منهمْ ما يكفيني.

استلمتُ كافةً حقوقي وقمتُ بتوقيعِ الأوراقِ ورددتُ لهُ أوراقهُ التي جاءَ من أجلها.. طلبَ الجلوسَ معي على انفرادٍ، رفضَ سعيدٍ بقائي معهُ في مكانٍ واحد بمفردنا، نظرتُ إلى سعيدٍ وابتسمتُ وأنا أشدُّ على يدهِ قائلةً لهُ :

- لا تخفْ، لن يؤذيني.

ذهبَ الجميعُ وبقيتُ جالسةً معهُ على نفسِ الطاولةِ، نهضَ عن مقعدهِ وجلس في المقعدِ المقابلِ لي، ونظرَ نحوي وقال :

- فعْلتِ ما لم تستطع أمكِ فعله.

كنت أتنهدُ باستمرارٍ، لازلتُ أخافُ منهُ ومن عينيه المحدقتين، وكنتُ أخفي هذا الخوف حتى لا يشعرَ بضعفي، فقلتُ له بنبرةٍ صارمةٍ :

- وما المزعج في ذلكَ ؟ أنني استعدتُ إرثي الذي لم تستطع والدتي أخذه.

فقال لي :

- لم أكرهكِ يومًا، بلْ على العكسِ كنتُ أتمنى أن تكوني ابنتي.

أجبتُه سريعًا :

- لكنني لم أتمنى يومًا أن تكون والدي، هذا آخر لقاءٍ بيننا، لن أراكَ بعدها، ولن أسعى لرؤيتكَ ثانيةً، وأتمنى أن تنسى وجودي إلى الأبد فأنت من إحدى الصفحات التي أحرقتُها ونثرتُ رمادها في الهواء وقبل أن أغادر، يجب أن أطوي صفحات الماضي كلِّها ويجبُ أن أعرفَ ماذا كنت تنوي فعله بي ؟

أجابني غاضبًا :

- لم أكن أنوي فعلَ أي شيءٍ، كنتُ أراكِ ابنتي التي رغبتُ بإنجابها، كنتُ أرغبُ بالزواج من والدتكِ، التي أحببتُها منذُ أول يومٍ رأيتُها، كانت موظفةً جديدةً، رِقّتها وجمالها كانا يأسرانِ قلبي الذي كُسرَ يوم أن قررَّتْ الزواج بأخي، كنتُ أودَّ أن أسألها لماذا لم تتقبل وجودي، حتى بعد وفاة ماجدٍ.

قاطعتُه قائلةً :

- كنتَ تنوي أذيتها، فكيفَ لها أن تحبكَ ؟

أجابني بصوتٍ بائسٍ حزينٍ :

ـ كلاّ لم أنوي أذيتها، كنت أريد الزواج بها لو أنها رضيتْ.

تنهد وأكمل حديثه :

ـ ليتها قبلتْ، لكنتِ تعيشين الآن بقربي.

بدتْ عيناه حزينتين، لأول مرة أرى عمِّي في هذا الحالِ، لم أكن أعلم أن له قلبًا مثل بقية البشرِ.

أنهيتُ لقائي به وأدرتُ ظهري وتركته وخرجتُ، ولم ألتفتْ للخلفِ.

عدتُ إلى سعيدٍ، وصعدتُ إلى سيارته وغادرنا.

جبروتُ عمِّي صنعَ مني انسانةً مختلفةً عن تلكَ التي كانت في الماضي، قسوة مشاعرهم كانت كالدواءِ الذي أعادَ ثقتي بأنني أستطيع مجابهةَ المصاعبِ، لو جاءني من يخبرني في الماضي أنني سأتعرضُ لتلك الأمورِ وأتمكنُ من اجتيازها بكلِّ عزيمةٍ وقوةٍ، لكنتُ قلتُ له إنَّهُ يبالغُ في ذلكَ.

انطلقتْ السيارة وتركت خلفها كلَّ آلامي.

اتفقتُ مع سعيدٍ أن نستثمرَ الأموالَ التي نملكها، وكانَ أفضل عملٍ قمنا به، أن فتحنا شركةَ مقاولاتٍ، فهذا ما يستطيعُ سعيدٌ أن يتقنهُ، وبدأتْ شركتنا تعملُ جيدًا، وبدأتْ أرباحُنا في ازديادٍ، لم أنسَ أنَّ خالي إحسان وابنه رياض كانا أصحابَ فضلٍ عليَّ، لذلك أرسلتُ لهما مالاً يكفيهم لشراءِ منزلٍ، والمتاجرةُ بباقي المبلغِ.

وبعدَ مرورِ تسعِ شهورٍ على حملي رزقتُ بمولودٍ أسميتهُ أحمد، لأنني حمدتُ اللهَ أنَّه لم يدعني بمفردي، بلْ كانَ دائمًا في عوني ورزقني بأجملِ مولودٍ، كان يشبهُ سعيدًا كثيرًا وهذا أجملُ ما فيه.



عشتُ بعدها حياةً تخلو من المواقفِ المؤلمةِ، وما عدتُ أعرفُ أخبارَ عمِّي ناصر، أمّا عمتي بدرية، أرسلتْ لي مرارًا تسأل عني وكنت أتجاهلُ اتصالها، حتى حضرتْ لزيارتي، في البداية رفضتُ مقابلتها، لكنني لا أزال أحبها، عندما رأيتُها، بدأتْ بالبكاء وأسرعتْ نحوي واحتضنتني وقالت :

- سامحيني يا بنيتي.

رفعتُ رأسي ونظرتُ لها فقامت بمسح دموعي بيديها الناعمتين فقبَّلتُ يدها وقلتُ لها :

- أنتِ عمتي، من أحبَها أبي، لنْ أذكركِ إلاّ بكلِّ خيرٍ، وكلمَّا حضرتِ إلى هنا ستجدينَ بيتي مفتوحًا لكِ.

وبدأنا بالبكاء، كنتُ أبكي ولا أعلم أيَّ أمرٍ يبكيني، وعمتي كانت تبكي، وتعلم جيدًا ما يبكيها.

عاهدتُ نفسي في تلكَ اللحظةِ أنْ أجعلَ كلَّ ما جرى لي في ذلكَ المنزلِ ذكرى أرويها كلَّما تساقطَ الثلجُ في شهرِ ينايرِ.



المؤلفة في سطور

- نُهى يوسف صُبح.
- كاتبة وروائية أردنية.
- بكالوريوس نظم معلومات إدارية من الأكاديمية العربية للعلوم المالية والمصرفية بتقدير جيد جدًا، عام ٢٠٠٧م.
- بكالوريوس تربية تقنية من جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا بتقدير جيد، عام ٢٠٠٢م.
- دبلوم هندسة معمارية بتقدير جيد، عام ١٩٩٨م.
- عملت في مجال الصحافة في صحيفة السوسنة، ككاتبة صحفية.
- تعمل حاليًا في مجال التدريس.

- صدر لها :

  - على ضفاف دجلة : قصة قصيرة. دار أصالة للنشر والتوزيع.
  - أسيرة الماضي : روايـة. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني : Nuha_so1@hotmail.com



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net